إرنستوتشي غيفارا

أحلامي لا تعرِفُ حُدوداً

تأليف هـ. أ. روس

ك. پ. ڤولڤ

توطئة

كان الإرباك يعتريه أكثر فأكثر مع اقتراب الامتحانات النهائية، وكانت تطول كالتاريخ، وهو يغوص في الكتب الدراسية بجهود لامتناهية. لكن، بدا له وكأن هذا العلم من دون نهاية. فيا لكثرة ما كان يتذكر في تلك الأيام كلمات البروفسور بيزاني: من غير الممكن دراسة الطب في أوقات الفراغ فقط.

ها هي النهاية قد أشرفت. فقد خرج من قاعة الامتحانات الأخيرة واضعاً يديه في جيوب سرواله، وهو يغادر ميدان الجامعة للمرة الأخيرة. لقد بدأت مرحلة جديدة في حياته، فهو من الآن فصاعداً ـ طبيب. أخذ يسير في الشوارع، يراقب الناس بعينيه وهو يفكر في طريقة مثلى لإنفاق ما تبقى في جيبه من نقود.

في إحدى حانات النبيذ التقى بصديقه القديم كاليكا، وكم من مرة أجهزا على زجاجات النبيذ أيام الدراسة. وبعد أن تناولا عدداً من كؤوس الشراب الأحمر، انتقلا إلى الحديث عن تطلعاتهما المستقبلية.

ـ إرنستو، إن أول عمل سأقوم به شخصياً هو تجميع الثروة شيئاً فشيئاً قدر الإمكان. فقد مللت من تعداد ما في جيبي من

نقود صباح ـ مساء. ولست راغباً في الجوع. ها هي فنزويلا تشهد الآن حركة عمرانية ضخمة، وسأذهب إلى هناك.

ـ معك حق، خصوصاً عندما ترتفع أمام ناظريك ورشات البناء. لكن، ما لا أفهمه بعد هو: أين يبنون كل ذلك؟ فالبنايات تحيط طولاً وعرضاً بكاراكاس.

ـ آه يا صاحبي. نحن المهندسين نبني أينما شئت. حتى إذا انتهت الأرض، نهدم البيوت الحقيرة ونبني مكانها الناطحات.

شعر إرنستو بانقباض، إذ لا مكان للناس وهمومهم في خطط كاليكا. ولم يكن يرغب في إشعال النقاش. لكن، لا يمكنه في الوقت نفسه التغاضي وكأنه لا وجود لهذه المشكلة.

ـ ما عسانا نفعل بأولئك الذين يعيشون في هذه البيوت الصغيرة؟ أيذهبون معكم لبناء هذه الناطحات؟ وهل سيعيشون فيها أيضاً؟.

تهرّب كاليكا من الإجابة.

ـ آه يا إرنستو، إنك تتحدث وكأنك لا تحتاج إلى المال، لكنني أتذكر حالتك أيام الدراسة، وأتذكر ما كنت تفعله حتى تكفيك نقودك! ألم تكن تصرف على نفسك بنفسك؟ وألم تكن تنوي السفر بعد الامتحانات؟ وإذا لم تخني ذاكرتي، ألم تقل إنك ستغادر إلى عند غرانادوس؟ على فكرة، أيسكن في كراكاس أيضاً؟

ـ إنه يسكن على مقربة من هذه المدينة، على الشاطىء. لقد اتفق معهم على تأمين مكان لعملي. تخيّل! سأقبض ثمانمئة دولار في الشهر. أنا لا أصدق أنني سأتسلم هكذا مبلغ. ويمكننا أنا وغرانادوس أن نكمل أبحاثنا.

ـ ماذا تريد أكثر من ذلك؟ بوجود المال يمكنك أن تمارس هوايتك بسهولة، وأن ترى جميع المناطق الأثرية في أميركا اللاتينية، أم أنك تخلَّيت عن علم الآثار؟

هزَّ إرنستو رأسه قائلاً:

ـ لا، على العكس من ذلك! إنني متعلق بالثقافات القديمة أكثر من أي وقت مضى، إذ بدراستها يمكنني التعرف على أميركا اللاتينية وتاريخها قبل أن يحولها الإسبان إلى أطلال.

فكّر قليلاً وهو يداعب الكأس بأصابعه، ثم صبّ ما تبقى في الزجاجة من نبيذ، فجأة، اقترح فكرة طرأت على ذهنه:

ـ اسمع يا كاليكا، هيا نسافر معاً.

أصابت كاليكا الدهشة:

ـ نسافر؟ كيف؟ صفر اليدين؟

ـ إنني أرفض السفر بالطائرة منذ الآن. لأنه عندما عدت من الولايات المتحدة إلى هنا، أخذت الطائرة تدور كعقارب الساعة، ولكثرة التحليقات الدائرية التي قامت بها فوق المدرج، هرعت سيارات الإسعاف والإطفاء، تخيّل حالتي حينها. وأسوأ ما في الأمر ـ أن الواحد منّا كان عبداً للظروف، لا يستطيع القيام بأي شيء ـ اجلس وتخيّل ما ينتظرك. أنا يكفيني ما كان، لا أريد السفر بالطائرة.

ـ حسناً، إذاً كيف تفكر في الموضوع؟ بحسب ما فهمت، لديك خطة كاملة.

أخذ إرنستو يتلذّذ بنبيذه المحبب، يحدِّث كاليكا عن انطباعاته عن جبال ماتشو ـ بيكتشو. ويصف له تلك القلاع الحجرية والمعابد الجميلة. لقد كان إرنستو مصمماً على العودة إلى هذه المنطقة مهما كلّف الأمر. لقد خطط للسفر من بيونس ـ آيرس إلى بوليڤيا، ومن هناك يصل، بطريقة ما، إلى البيرو، ومن ثم عبر الإكوادور وكولومبيا إلى فنزويلا مباشرة، ثم إلى صديقه غرانادوس.

واتفقا على السفر معاً.

نهض إرنستو من مكانه متثاقلاً، وأكمل شرب ما تبقى في الكأس، ثم قال:

ـ أتعلم يا صديقي، عليّ أن أقوم قبل السفر بعمل ما غير مريح.

ـ قصة حبّ جديدة؟

ـ لا، المسألة تختلف تماماً، عليَّ أن أودِّع البروفسور بيزاني.

ـ حقّاً، أريد أن أسألك حول هذا الموضوع بالذات، فأنت محط ثقة بالنسبة له، وهو يعتمد عليك كثيراً، ألست أنت من اشترك معه في عمليات الإحصاء ودراستها؟ فربما يقترح عليك العمل معه...

ـ هو ذلك بالضبط. لكنني لا أريد أن أتحول إلى عجوز هرم قبل الأوان. بل أريد أن أعرف كل شيء. إذ عندما كنت مسافراً مع غرانادوس، برزت لديّ عدّة أسئلة يحيطها الغموض. ولو كنت معنا، لرأيت بعينيك ذلك الفقر، وتلك المظاهر للظلم الفاحش. تنظر أحياناً، فترى الثروات. لكن، ما هو نصيب العامل أو الفلاح من ذلك؟ وكأنه حُكم على سكان تلك القرى بالنسيان الدائم. ترى الأمية، والظلم، والحرمان من أية مساعدات طبية، فهذه أمور لا أنساها ببساطة.

ـ كل ذلك اسمه: اليانكي يسرقون بلادنا.

ـ بالضبط، هذا صحيح يا كاليكا. لكن، ما هو البديل عن ذلك؟ أنا لم أجد الجواب بعد، لكنني، ورغم كل ذلك، أريد السفر إلى فنزويلا. ترى، ما الذي ينتظرني فيما لو وافقت على اقتراح البروفسور بيزاني؟ ربما أصبحت بروفسوراً بعد خمس سنوات من العمل! ثم أدرِّس في الجامعة حتى تداهمني السنة الخامسة والستون. لحظة...، هذا يعني أنني سأحال على التقاعد في عام 1993. ـ وأشار إرنستو بيده تعبيراً عن الرفض ـ

لا، لست بحاجة إلى تلك الحياة. فأنا أريد أن أخوض التجارب، وأريد أن أرى العالم. وأعتقد أني سأعود بعد عشر سنوات إلى الأرجنتين لأعمل كطبيب.

* * *

نقل نظره عن الطاولة عدة مرات وأرسله نحو ذلك الملصق المعلّق على الجدار. لقد علّق هناك منذ سنوات عدة، فكم طبقة من الغبار تغطي ألوانه اللامعة؟ لكنها، رغم ذلك، تبدو له براقة جداً.

كان يشعر بذاك الوجه على الملصق يتغير بشكل غريب. فقد مرّت أيام كان يبدو فيها حازماً وقاسياً، ثم أخذت نظرته تعبر عن كراهية يتخللها نداء لشيء ما. بعد ذلك، أعجب بتلك البسمة التي تلهو على وجه تشي، خصوصاً عندما كان يغوص في كثرة المواد التي تجمعت لديه عن صاحب الملصق. وفي أيام أخرى، أخذت عيناه تشعّان بتفاؤل جديد.

رصّ الكتب واحداً فوق آخر: دفتر مذكراته في بوليڤيا، خطابات فيدل كاسترو، مواقف من الحرب الأنصارية، مواد وأبحاث حول نشاط المخابرات المركزية الأميركية، دفتر مذكرات بومبو، تسعة مجلدات لخطابات ورسائل تشي نفسه.

لقد قرأ في السنوات الأخيرة الكثير الكثير من الكوميندان(*) إرنستوتشي غيڤارا. ومرّ في ذاكرته شريط من المقاطع الأولى: أسماء المشهورين وأسماء المناطق الجغرافية. لكنه، في كل مرة

(*) كوميندان (Comendante): رتبة عسكرية تعرف في سوريا ومصر بـ ـ رائد في الجيش ـ وفي العراق بـ رئيس أول، وهي أعلى رتبة عسكرية في الجيش السري، حاز عليها غيڤارا بعد سنة واحدة من انخراطه في صفوف هذا الجيش الذي قام بالثورة الكوبية بقيادة فيدل كاسترو. (المترجم).

كان يعتقد فيها أنه يقترب من تشي كان يشعر بخيبة الأمل من جديد.

كانت صورة تشي في ذاكرته تتغير بشكل غريب: كان يراه عقلانياً فوق العادة، فجأة، يراه متناقضاً ـ وأخرى، يبدو كل ما في ذاكرته عن تشي خالياً من أي إثبات ووضوح. لم يشعر أن كثرة الشواهد لا يمكنها أن تشكل بمجموعها العشوائي صورة لإنسان حي، بل يجب تتبع سيرة حياة هذا البطل بطريقة مشوقة!

قرر أن يدرس طفولة تشي وشبابه بصورة أعمق، مدركاً أن فهم الإنسان لا يتم من دون دراسة طفولته. فوجد في تلك الكتب التي صاغت حياة تشي، وهو ابن الثامنة من عمره، مستقبلاً واضحاً، فهو ثوري أو رجل دولة أو متهوِّر، بحسب الأرضية السياسية للمؤلف.

لذلك، أخذ يجمع أحجار الفسيفساء كي يشكل صورة متكاملة، وليتمكن من تقديم فترة شبابه بشكل واضح ومحدّد. لكن، هل يمكن لهذه الصورة المتكاملة أن توجد، في الوقت الذي تتزاحم فيه الشهادات، والمذكرات، والأساطير، والأحداث الميدانية والتاريخية؟

كان لا يزال يتساءل ويتساءل، حتى أخذ يختار كل مادة بتعمّق وشك، ويحاول اختبار كل شهادة بمدى قدرتها على الإقناع.

بعد ذلك، حان وقت تقديم الأسئلة، فأراد أن يستوضح سر اختيار إرنستو غيڤارا لهذا الخط في الحياة، وسر اختياره لهذا المصير.

تي تي

كان إرنستو يلاعب أخاه الصغير روبرتو، والملل بادٍ على وجهه:

ـ لست راغباً في اللعب أكثر يا روبرتو. ما رأيك لو نذهب إلى منزل الجيران؟

ـ آه، سيكون عندهم اجتماع كالعادة.

ـ ما المناسبة، ألا تعرف؟

ـ ما هو شأني بذلك.

ـ هيا بنا، يوجد هناك في بعض الأحيان ما هو ممتع. أتذكر تلك العجوز الشقراء عندما دعت أحد الرجال بنصف عاقل؟

ابتسم روبرتو، وذهب مع أخيه بحماس. كانت الأصوات تسمع حتى الشارع، لكنها لا تدل على جو مرح وضحك. تسلل الولدان نحو والديهما عبر الغرف المكتظة بالبشر. كان إرنستو يحبو تحت المقاعد، أما روبرتو فتناقلته أيدي الجالسين. كان جو الغرفة ضبابياً بسبب الدخان.

ـ يجب البحث عن طريقة أخرى للاحتجاج، فهذا الثمن للكهرباءلا يمكن أن يسمى إلاّ نهباً. لاحق إرنستو يد الخطيب، حيث كانت ترسم في الهواء أشكالاً تنم عن انسجام كامل، وحماس شديد لما يطلقه من كلمات، دون أن يلاحظ رماد سيجاره يتساقط يمنة ويسرة. أخذ إرنستو ينتظر سقوط الرماد على

صاحب السيجار، وهو يرتدي سروالاً أبيض اللون، مما يسبب بقعة عليه. أو يسقط على جارته التي ترتدي فستاناً رمادي اللون، وهي تنتظر فرصة للكلام.

كان الخطيب يتفوه بكلمات تدل على مزاج قتالي:

ـ فلنحطّم أضواء الطرقات والمشكلة تحلّ.

ـ هراء! قالت جارته معترضة، وأشارت بالشاهد على جبينها.

في هذه اللحظة سقط رماد السيجار على ركبتها، عندها ابتسم إرنستو في سرِّه.

ـ بالضبط! يجب تحطيم جميع الأضواء في الشوارع، وفي كل أنحاء المدينة! وعلى شركة الكهرباء، بحسب القانون، أن تتحمل كافة النفقات لإصلاحها في يوم واحد، وإلاّ تدفع غرامة مالية. فإذا قمنا بتحطيم المصابيح دفعة واحدة فإن. . .

قطعت كلامه ضحكة صاخبة. لم يكن أحد يحمل اقتراحه على محمل الجد. نظر إرنستو إلى أخيه نظرة تساؤل، فلم يكونا بحاجة إلى كلمات حتى يقيِّما الوضع ويتآمرا.

غادرا الاجتماع، بعد أن أعجبتهما الفكرة. فما كان منهما إلاّ أن جمعا أصدقاءهما من الأطفال والمراهقين، وانقسموا إلى مجموعات انتشرت في المدينة، وانهمرت على المصابيح بالحجارة.

شعر البوليس أنه معني بالأمر، إذ أصبحت حماية أعمدة الكهرباء والمصابيح، من العابثين، من واجبات البوليس. لكن الأولاد انتشروا في المدينة كالفطر، وأخذوا يجمعون الحجارة بدل اللعب بالكرة، حتى انتهت الإضاءة في المدينة كلها تقريباً. أما شركة الكهرباء فقد أجبرت على إصلاح ذلك على نفقتها، لكنها لم تتراجع عن قرارها برفع أسعار الكهرباء.

لقد ملّ إرنستو وأخوه من لعبة رنين الزجاج المحطم. وانتقلا إلى ممارسة هواية جديدة. أخذ إرنستو يقرأ كتاباً ضخماً من مكتبة والده هو: دونكيشوط.

❊ ❊ ❊

ما إن وضعت والدته سماعة الهاتف حتى أيقن أن من كانت تتحدث إليها هي مدرِّسته. وغلب الجد على وجه أمه، وشابها بعض الحزن:

ـ إرنستو، تعال إلى هنا. ما الذي حصل في المدرسة اليوم؟

وقف على مسافة آمنة منها وتمتم:

ـ لقد قالت لك تلك البقرة العجوز، أليس كذلك؟ إنها لا تدري ما تفعل، وهي مجنونة، صارمة وغبية. ومن الأفضل لها أن تعمل راعية للبقر.

اقتربت منه والدته ببطء:

ـ إرنستو، لقد أخبرتني المدرِّسة بأنك لم تتصرف بشكل لائق في المدرسة و...

ـ إنها بقرة عجوز وغبية!.

ـ أحقاً، كادت أن تحطم يدها بسبب حجر الطوب؟

ـ كان عليّ أن أدافع عن نفسي. لقد أرادت أن تعاقبني، فوضعت قطعة الطوب تحت السروال.

ـ لكن، ما كان لمدرِّستك أن تضربك من دون مبرر يا إرنستو.

ـ دعيني لحالي في النهاية!.

قال ذلك، عندما أراد مغادرة الغرفة، لكن والده الجالس في الغرفة المجاورة، كان قد سمع الحديث، ودخل غاضباً:

ـ كيف تجرؤ على محادثة والدتك على هذا النحو، سأعطيك نصيبك الآن!

وقفت كارمن أرباس بينهما. وهي مربية جاءت للعمل عند عائلة غيڤارا منذ ولادة إرنستو، كانت تعتني بالأطفال الأربعة. وكان إرنستو محبوبها الدائم. فكم من المرات أنقدته من عقاب صارم.

ـ سيد غيڤارا، سيد غيڤارا، لا تعاقب تي تي المسكين!

ـ دعك من هذا، إنه يربي ولداً معاقاً، كنتِ دائماً تحمينه. لكن، لا يمكن السكوت عن تصرفاته الآن، فقد تخطى كل الحدود.

لحق الأب بابنه، وهو يلهث من شدّة غضبه. أما إرنستو، فقفز إلى الحديقة الكبيرة عبر الدرج السري، وبعد أن أصبح على مسافة بعيدة، أخذ يصرخ:

ـ ها أنذا! حاول اللحاق بي إن أردت! وتابع طريقه.

كان والده يغلي من شدّة الغضب.

توقفت أعمال حفر الخندق التي كانت تدور قرب بيت عائلة غيڤارا، ووقف الجميع ينظرون إلى هذا المشهد المسرحي المجاني. عاد الأب وهو يلهث، وعندما أصبح بمحاذاة العمال أخذ يسرع في خطاه.

كان إرنستو يتتبعه. واختبأ خلف أضخم العمال جسداً. فقال الأب للعمال.

ـ أينما عملتم، تواكبكم الرغبة في اللهو ـ يا للكسالى.

شاهد إرنستو من بعيد زاخارياس، وهو غلام في الخامسة عشرة من عمره، يبيع كل يوم بعض الحلوى التي تصنعها والدته، كي يساعد العائلة على تحصيل بعض النقود.

ـ زاخارياس، دعاه والد إرنستو، كيف حال البيع اليوم؟ كما أرى لا يزال الصندوق مملوءاً. اسمع، ما رأيك لو أعطيتك خمسة بيزوات وبقي الصندوق لك ـ مع العلم أنه لا يستحق هذا الثمن كله مقابل أن تمسك لي بإرنستو، فهو يختبىء بين تلك الأشجار!

ذهب زاخارياس، وبعد ساعة من التعب عاد بخفي حنين؛ لأن إرنستو كان يراه وهو يأخذ البيزوات الخمسة، فما كان منه إلاّ أن تسلل إلى البيت دون أن يلحظه أحد.

أخذ الخوف يدبّ في قلب الوالدين شيئاً فشيئاً، فالغابة تمتد لمائتي هكتار خلف البيت، ومن السهل ضياعه فيها. لكن إرنستو الموجود في المطبخ، أخذ قطعة من الخبز، ودون أية ضجة، دخل غرفته، ونام في الفراش. ومن هناك، أخذ يسمع أصوات والديه من الطابق السفلي وهما يبحثان عنه في الحديقة، حتى داهمه النوم.

* * *

ـ لكن، لماذا يسمح للغلمان الآخرين؟ ألا نستحق ذلك نحن يا ياما؟ قال إرنستو راجياً والدته.

ـ ربما كان الأمر كذلك. لكن، عمرك لا يتجاوز الحادية عشرة، وأخاك لا يزال في التاسعة، وتريدني أن أدعكما تذهبان وحدكما!

ـ ولو لشهر واحد يا ماما.

ـ لماذا لا يسافران؟ قال الأب متدخلاً. عندها نظر إليه إرنستو نظرة شكر، ودبّ الحماس عند روبرتو.

ـ ماما، لن نزعج أحداً!

ـ كثيرون ممن هم في عمريهما يعملون في قطف العنب. وهما بذلك يتعرفان على العمل الحقيقي، ويحصلان على نصف بيزو في اليوم، ويمكنهما التهام العنب بنهم في تلك المزارع.

أخيراً، تمكن الوالد من إقناع الأم، فوافقت على ذلك.

كان في نيّتهما البقاء طيلة شهر كامل. لكن، ما إن مرّ اليوم الرابع حتى كانا يقفان على عتبة المنزل، والوسخ يغطيهما من الرأس حتى أخمص القدمين، والجوع يعصرهما.

ـ ماذا حدث لكما؟

قدم إرنستو تقريراً كاملاً:

ـ يا له من وغد! لقد اشتغلنا ثلاثة أيام كالملعونين. لكن، انتابتني نوبة ربو قوية، حاولت بعدها أن أستمر في العمل، لكن دون جدوى. عندها، ذهبنا إلى صاحب الأرض، وقلت له إنني لا أستطيع أن استمر في العمل. وطلبت أجرتنا، لكنه لم يعطنا سوى نصف ما نستحق. ابن العاهرة!

ـ لماذا فعل ذلك؟

ـ لقد ادعى أننا لم نلتزم بعقد العمل، ونحن كنا قد اتفقنا على شهر كامل.

ـ ماذا ستفعلان الآن؟

ـ هيا بنا يا بابا نهشم وجه ذلك الحيوان!.

❋ ❋ ❋

كانت نظرات الاحتجاج تملأ الشوارع. وأعداء بيرون(❋) من المعارضة توحدوا فيما بينهم. وعقدت الاجتماعات المتتالية في الجامعة لمناقشة المظاهرات المقبلة، وصعوبات المظاهر الاحتجاجية.

اقتحم البوليس حرم الجامعة، ورمى الطلبة في المعتقلات دون محاكمة أو تحقيق. سمع إرنستو ذلك من صديقه توماس غرانادوس الذي قال:

ـ لقد اعتقل البوليس أخي دون سبب أو تهمة. يجب أن آخذ إذناً لزيارته.

ـ توماس، إذا سمحوا لك بزيارته، اصطحبني معك.

ـ لكن، لا تعرفان بعضكما جيداً.

(❋) رئيس الأرجنتين في ذلك الوقت.

ـ أود أن أتعرف إليه عن قرب. فهو الذي يعيِّن أعضاء فريق السيبول، وأنا أحلم في أن أكون واحداً من هذا الفريق.

ـ يضمونك أنت؟ أتعتقد أن ألبرتو يقبل غلاماً في الثالثة عشرة من عمره في فريق السيبول؟

ـ أعلم ذلك، ولا أريد أن أكون عضواً في الفريق الأساسي. لكن ألبرتو هو الذي يحدّد من يقف خلف الملعب لالتقاط الكرة، وستكون فرصة لي.

ـ حسناً، سأحاول الحصول على إذن بالزيارة.

تمت زيارة ألبرتو في مركز إدارة البوليس، حيث الزنزانات المكتظة بالمعتقلين. لقد بدا لإرنستو أصفر الوجه، لكن الغضب يملأ عينيه.

ـ إنهم يعتقلوننا بشكل غير قانوني، ودون قرار من المحكمة. يجب أن يعرف الجميع ذلك. يجب إخراج الناس إلى الشوارع. وهم يرفعون شعار إطلاق جميع الطلاب المعتقلين.

هزّ إرنستو رأسه قائلاً:

ـ ما الذي تقوله يا ألبرتو. نخرج إلى الشوارع بهذه البساطة، حتى يسحقوننا بهراواتهم؟ أنا مستعد للخروج إلى الشارع شرط أن أحصل على مسدس.

* * *

انضم إرنستو إلى جموع الناس الهائجة. كانوا يتقدمون باتجاه نادي ـ جوكي. كان إرنستو يسمع من والده أن من شروط عضوية هذا النادي أن يكون لديك مال كثير، واسم مشهور.

ـ فليسقط المتخمون بالمال! فليسقط المتخمون بالمال! كان يهتف المتظاهرون.

وقف بعض أعضاء النادي في الباب. عندها، شعر إرنستو أن الوقت قد حان. دوّى الحجر الأول، فهوى زجاج واجهة الخزانة. انضم إرنستو إلى المهاجمين. هتف أحدهم.

ـ انصرفوا من هنا، خنازير! إلى الولايات المتحدة وبئس المصير!

أخذت الحجارة تتساقط بغزارة. اصطف أعضاء النادي أمام الباب. اعتقد إرنستو أنهم سيدافعون عن أنفسهم لأن البوليس قد تأخر. كاد صوته أن ينقطع، لكنه استمر بالصراخ:

ـ تقدموا إلى هنا، أيها الجبناء! أم أنكم لا تقوون على ذلك من دون كلابكم؟

ضربهم بحجر واحتمى خف أحد الجدران. وبينما كان يهم بالتقاط الحجر الثاني صرخ أحدهم:

ـ الثيران(*)!

بالفعل، لقد هاجمهم البوليس من الخلف. تمكن إرنستو من عدِّ أكثر من دزينة من الجنود فوق سيارة واحدة من سياراتهم الكثيرة.

ـ خفّوا أرجلكم! فليختفِ الجميع! لقد اقتربت الثيران.

ألقى إرنستو حجراً آخر عندما كان يفرُّ هارباً، لكنه لم يَرَ كيف طار الحجر وإلى أين. كان له من العمر ستة عشر عاماً. ومن الطبيعي أن يكون ولد بهذا العمر جالساً في البيت يحضِّر دروسه، لا أن يقذف نادي ـ جوكي بالحجارة.

لحق به رجلان من البوليس. لكنه لم يكن رياضياً سيئاً، والإمساك به لم يكن أمراً سهلاً، إلاّ إذا داهمه الربو. لقد انقبض صدره، أخذ يفكر برعب، يجب التنفس بانتظام يا إرنستو، بانتظام فقط.

ـ لقد تعثر أحد رجال البوليس وسقط على الأرض، لكن رفيقه قام بمساعدته على النهوض، أما إرنستو فقد اختفى مع حلول الظلام في الطرقات المتعرجة. وهكذا نجا من اعتقال محتَّم.

(*) الثيران: هكذا كان يلقب البوليس بقصد إهانته.

بعد ذلك، نزل في ضيافة صديقه ألبرتو. وهما يشربان المتَّة سمع إرنستو عتاباً شديداً:

ـ يا لك من إنسَان عجيب، صحيح أنني اشتركت في عدة مظاهرات طلابية، واصطدمت مع البوليس، لكنك أنت، مع من سرت إلى نادي ـ جوكي؟

هزّ إرنستو كتفيه:

ـ لا هم لي بذلك، سوى أنني منذ مدة طويلة كنت أتحين الفرصة كي انتقم من أولئك المتخمين، والمتكرشين القابعين في ذلك النادي.

* * *

الحزن، الدموع، الغضب. كان إرنستو يضع يديه على عينيه، ويشعر بمغصٍ في معدته. لا، لا يمكن أن يصدِّق ذلك.

سبعة عشر يوماً وهو يجلس قرب فراشها، يراقب احتضارها برعب، لقد خارت قواه. ها هي جدته تموت. لم يكن قادراً على تحمل هذا الحدث الجلل، ولا على استيعابه. كان يشعر برغبة في أن يعاني من ألم جسدي، ربما ينسيه صراعه الداخلي، أو يخرجه منه. هام على وجهه في الشوارع. أخذ يسير دون أن يعي إلى أين تقوده قدماه، وإلى أي حي يتجه. هناك في الزاوية، فرّ أحدهم هارباً، ولحق به آخرون، وأحدثوا ضجيجاً. كان الضجيج يصمّ أذنيه عن كل الأصوات. لم يبق إلاّ هو، أخذ الكثير من الهواءفي فمه، طرقت ضربات على الرقبة. والوجه مملوء بالبويا، بدا قابلاً للسقوط.

لم يبق في ذاكرته، من الأفكار المتقطّعة التي تزاحمت في رأسه، سوى بعض منها، أعطت صدى على صدغه:

ـ عدم الجلوس مكتوف الأيدي دون مقاومة.

ـ عدم الاكتفاء بالمراقبة السلبية!

تعلم الصراع مع أي مرض كان.

ـ الدراسة الحثيثة كي تصبح مهندساً!

مرّت أيام، وهو لا يفكر بغير هذه الأفكار، حتى اتخذ قراره بعدم دراسة المواد التكنيكية، وقرّر دراسة الطب.

* * *

لاحظ إرنستو في حركات تشنتشينا شيئاً من العصبية، فأخذ يراقب صديقته المضطربة بفرح واستمتاع:

ـ ما بك يا تشنتشينا؟

خفضت تشنتشينا رأسها وهي تهزه، وكأنها تريد التأكد من لون تنورتها البيضاء، ثم قالت، دون أن تنظر إليه:

ـ كم من مرّة ارتكبت فضائح نتيجة تصرفاتك غير اللائقة في هكذا تجمعات. وها أنت تقوم بذلك من جديد. فما هو هذا المظهر الذي أنت عليه؟ كنت على استعداد للذهاب معك إلى السينما، وأنا مسرورة. لكن دولوريس أصرَّت على حضورنا هذا الحفل. أنا لا أستبعد وقوعها في حبك.

انفجر إرنستو ضاحكاً:

ـ تلك العجفاء، أثارت غيرتك؟

ـ ما الغريب في الأمر؟ أجابت تشنتشينا، غباء! أنت ابن عائلة محترمة، وأمامك مستقبل لامع كطبيب. ومع ذلك ترتدي ملابسك وتتصرّف كما لو أنك تربيت على قارعة الطريق. غير أن ذلك يمنحك رونقاً يثير الاهتمام.

كان إرنستو يعرف جيداً مقاييس أصحاب الذوات من كودوفي واهتماماتهم. لكنها لم تكن تعني له شيئاً، وتبعد كثيراً عن اهتماماته. واليوم أيضاً لم يحظ مظهره بأي اهتمام منه، لم ينظف حذاءه المهترىء، والرقعة الموجودة على سرواله كانت تمنحه طابعاً خاصاً، أما سترته الأزلية فكانت على كتفيه كالكيس. حاول

إرنستو أن يزيل شكوك تشنتشينا، فتوجها إلى منزل دولوريس مويانا مورتين. وفي الطريق رجته أن يتصرف بشكل لائق.

هناك، أخذ كأساً من النبيذ الأحمر، وامتنع عن التدخين، وراح يبحث عمن يشاركه في لعب الشطرنج. كان يريد التهرّب من الرقص. فالجميع يعرفون عنه أنه لا يميز بين رقصة الڤالس والتانغو.

لفت انتباهه في الحفل عم تشنتشينا، فهذا المتكرّش قصير القامة، يرتدي ثيابه باهتمام فائق. كان كثير الكلام. لقد استمع إليه إرنستو لبعض الوقت ثم همس في أذن تشنتشينا:

ـ من يكون هذا الأهبل؟

أحست تشنتشينا الخبث في سؤاله:

ـ هذا عمِّي، لكنه بعيد القرابة. وقلّما يأتي إلى هنا. لا داعي لأن تفسد عليه أمسيته، فقد أدار منذ قليل اسطوانته المحببة: انكلترا.

أخذ إرنستو يدير الكأس في يديه وهو يستمع إلى ذلك المتكرّش:

ـ إنني أرى تشيرتشل عبقرياً، لحزمه وبعد نظره السياسيين، ونحن مدينون له بالانتصار في الحرب العالمية الثانية. إنني أنحني إجلالاً واحتراماً لهذا الرجل. فهو أمثولة للسياسي المحنك والحقيقي. كان فضله مباشراً في الانتصار على الفاشية.

ضحك إرنستو بصوتٍ عالٍ، فنظر إليه العم بغضب.

ـ أتضحك مني أيها الشاب؟ وأومأ إلى إرنستو.

ساد صمت رهيب ينذر بعاقبة وخيمة. فقرر إرنستو أن يشرح موقفه:

ـ تشيرتشل! هذا الـ «بودلوغ»(*) الانكليزي! ماذا يعني: «النصر

(*) بولدوغ: نوع من الكلاب. (المترجم).

من فضله المباشر»! فكل ما سعى إليه هو المحافظة على الأمبراطورية من أجل العائلة المالكة، وأكياس النقود.

نهض العم من مكانه مغتاظاً!

ـ إنك تحمِّل نفسك الكثير! إن من يسمح لنفسه أن يهين تشيرتشل فهو يهينني! تشيرتشل ليس بولدوغاً! ثم، كيف تسمح لنفسك بالظهور في مجتمع راقٍ بهذه الملابس؟ ألا تملك نقوداً، أم أن هذا المظهر نوع من الفوضوية؟ هلا نظرت إلى سروالك!

نظر إرنستو إلى سرواله متعجباً، ثم عاد ونظر من جديد إلى السيد المتكرّش قائلاً:

ـ السروال سروال! وعندي سروال آخر غيره، لكنه أكثر قِدماً!

فقد العمّ القدرة على الكلام للحظة قصيرة. ضحكت تشنتشينا لهذه النكتة، وابتسمت دولوريس كذلك.

ـ أنا لا أسمح أن يجعل مني أضحوكة! سأغادر هذا المكان! كفى! لن أسمح بإهانتي أكثر! قال العمّ هذه الكلمات وهو يهم بالمغادرة، ومضى متثاقلاً.

ـ تحياتي القلبية إلى جميع البلدوغيين الانكليز! قال إرنستو ذلك وهو يلح عليه. في هذه الأثناء، توقف الجميع عن الضحك. فلم يكن من الصعب على إرنستو أن يدرك أنه عاد من جديد إلى تصرفاته غير اللائقة. وقد لامه الجميع.

* * *

اتكأ إرنستو إلى المنضدة، وهو يقوِّم جيمع الاحتمالات. لقد كان ملكه مهدداً. هل يضحي بوزيره لإنقاذ الملك؟

أخذ يبحث مطولاً عن احتمال لانقاذ ملكه بأقل الخسائر. رشف قليلاً من الشاي، وبدأ يحسب الخطوات الممكنة لحصانه الأخير. كان مستغرقاً في اللعب بكل قواه، حتى أنه لم يكن يلاحظ ما كان يدور خلف الطاولات المجاورة. كان يجلس دون

حراك، ينظر إلى كل مربع من مربعات الشطرنج وعيناه تبحثان عن سبيل للإنقاذ، ويحسب اللعبة خطوة خطوة. إنها مجزفة، ولا سبيل سواها، بل على العكس، ستتيح لي مجالاً للتقدم.

فجأة، دخل زميلهما في الجامعة أوغستو:

ـ يا شباب! هناك مظاهرة طلابية صغيرة تنظم الآن ومشاركتكما ضرورية! نهض خصم إرنستو من مكانه:

ـ ما بك يا إرنستو؟ أوقف نظرك عن اللوحة! قيل لك، هيّا! لكن إرنستو لم يتحرك، فقد أخذه اللعب بشكل غريب.

ـ اجلس، من الأفضل أن نكمل اللعب.

ـ ماذا تقول يا إرنستو؟

اجلس.

❋ ❋ ❋

كان إرنستو قد حزم أمتعته فوق دراجته الهوائية ـ النارية(❋)، عندما مرّ والده من أمامه:

ـ أيها الشاب، هل جربت المحرّك قبل حزم الأمتعة؟

ـ لا داعي لذلك، محركات «ميكرون» ذات كفاءة عالية.

ـ ألا زلت مصمماً على رؤية المقاطعات الاثنتي عشرة بكاملها؟ أليس ذلك بكثير؟

ـ لقد حددت مساري، ولا أدري، ربما لحقت بي شاحنة ما على الطريق، فهذا كثيراً ما يحصل.

ـ انتبه يا بني. لكن، كيف ستتجه؟

ـ في البداية إلى كوردوڤا، ومن هناك إلى شلالات كاسكادا ـ دي ـ لوس ـ كوليليوس بصحبة توماس وأخيه غريغوري. ثم

(❋) الدراجة الهوائية النارية: نوع من الدراجات الهوائية يثبت عليها محرك لتسهيل حركتها، وهي تعمل به ومن دونه. (المترجم).

نصب خيمة، ونجول في القرى الجبلية. بعد ذلك نتوجه إلى سان فرانسيسكو ـ ديل ـ تشينار، وهناك تبدأ مغامراتي العظيمة.

ـ ما هي هذه المغامرات؟

ـ كما ترى، أريد أن أقطع الصحراء الأرجنتينية وحدي، على دراجة هوائية، ومعي نصف ليتر من الماء. أريد أن أحس بحرِّ الشمس في تلك الوهاد الرملية المهجورة!

ـ بماذا تفكر في نفسك؟ ما الذي يضطرك إلى السفر وحدك؟

ـ ليس لدى الآخرين وقت كاف لذلك، سيعودون أدراجهم.

ـ اسمع يا تي تي. هذا كلّه لا يعجبني. فالمزاح مع الصحاري سيِّيء. وإذا كنت مصراً على ذلك، عليك بالاحتياط من الماء. ولا تنسَ قطع الغيار للدراجة، لأن ساليناس ـ غراندس خطيرة، فهي صحراء من الرمال الملتهبة تمتدإلى ثلاثمئة كيلومتر طولاً ومئة عرضاً. وهي خالية من أية حياة. أرجو أن يرعاك الله.

ـ لقد قرأت عنها مئة مرة. وسترى يا أبي أنني سأقطعها!.

* * *

ها هو أخيراً، يقف أمام تلك الصحراء التي طالما حدَّثوه عن مخاطرها. أما ألبرتو وتوماس فأخذا يحذرانه للمرة الألف، لأنهما قرآ عن مخاطرها أيضاً.

كان الوضع يزداد سوءاً بعد كل كيلومتر يقطعه، وعالم النبات يتغير أمام ناظريه. لكن، سرعان ما ظهرت أمامه أشجار الصبّار. فتوقف على مسافة ستة أمتار من إحداها. ترجّل عن دراجته، وأخذ يكتب بعض الأسطر في دفتر مذكراته: «كل من تحدثت إليه عن رحلتي هذه، كان يؤكد لي أن قطع صحراء ساليناس بخمسمئة غرام من الماء مستحيل. لكن، هذه الكمية ستكفيني في رحلتي المجيدة، فاقتنعوا أيها الناس!».

طوى دفتره، وبدأت المغامرة.

كانت الطريق تزداد جمالاً للمسير، عندما كانت النباتات تقل وتختفي. فجأة، ظهرت أمامه طريق معبدة بالإسفلت. إنه مدرّج رائع. كان يلتقي كل اثنين من الكيلومترات بمظلة. وبعد مسير ثلاثين كيلومتراً، توقف تحت إحدى المظلات للراحة. لكن الطريق المعبدة لم تنته بعد. وعند مدخل المظلة كان يقف رجل ضخم ذو لحية كثيفة. نظر إلى إرنستو الذي بادره بالسؤال:

ـ ألا يوجد في حوزتك ماء أملأ به زمزمتي؟ لقد سخن الماء الذي معي من حرِّ الشمس. أم أن ما في حوزتك لا يكفيك؟

ـ ها هي البئر، فانتشل منها أيها الشاب.

لم يكن إرنستو يظن أن عليه انتشال الكمية القليلة المطلوبة من عمق كبير. نظر إلى البئر لتحديد عمقها: «أقل من ثلاثة أمتار»، همس في نفسه بيأس وتعجب.

يبدو أن ما كتب عن ساليناس ـ غراندس قد شاخ، وعلى الأغلب أن الأب وتوماس وإرنستو كانوا قد قرأوا الكتاب نفسه.

كان مسار الرحلة مريحاً. لقد وصل إلى توكومانا، ومن ثم إلى سالتي. في آخر المساء، أخذ يبحث عن مخفر البوليس قبل أن يذهب إلى التجمع السكاني. لقد سمح له مناوبان من رجال البوليس، كما هي العادة في هكذا مواقف، أن ينصب خيمته بمحاذاة المخفر. بعد ذلك، أخذ يجول في المنطقة متنزهاً، وهو يفكر في السؤال الذي طالما أرهقه.

جلس على الأرض متكئاً إلى جذع إحدى الأشجار، تناول دفتره وهو ينظر إلى التلال المحيطة به. ثم بدأ في تدوين ما جرى معه: «وصلت إلى سالتي في الساعة الثانية عشرة ظهراً، وأول ما قمت به هو التفتيش عن أصدقائي العاملين في المستشفى المحلِّي. لقد دهشوا عندما عرفوا أنني قطعت هذه المسافة في يوم واحد. بعد ذلك خطر لي سؤال، بقي دون إجابة: ما الذي أريد أن

أعرفه؟ على أية حال، أنا لست بذاك السائح الذي يبحث عن التواريخ الجامدة في الشوارع: «هذا معبد. . . وتلك حانة مشهورة. . . ». لا، لن تتمكن من ذلك، إذا كنت تريد معرفة الشعب، ولن تتمتع بفهم الحياة ـ حياة البشر. ليست تلك البنايات الأثرية سوى جمال جامد. لكن، روح الشعب وصفاته تسكن في العجائز، وفي عابر سبيل تتحدث معه. لكن، أنّى لك أن توضح ذلك وتعكسه، وأنت لا تراهن على فهم ذلك أصلاً؟».

سجل في دفتره: «لن يدفعني التسابق مع الكيلومترات إلى الأمام. لقد قطعت أربعة آلاف وخمسمئة كيلومتر في جميع أرجاء المقاطعات الاثنتي عشرة، وعلى دراجة عادية يضاف إليها محرك صغير، فهذا ليس كأكل الزبيب. رغم كل شيء، ما هي الفائدة من كل ذلك؟ سؤال أصدقائي ـ في الصميم».

حلَّ الظلام، وعاد إرنستو إلى خيمته بخطى سريعة. فوجد رجلين من البوليس يحتسيان المتّة بقربها. اقترب منهما وجلس.

ـ أمن الصعب أن أجد شاحنة في الصباح؟ المرتفعات صعبة هنا.

ـ أشك في أن يحالفك الحظ، لأن الشاحنات نادرة في هذا المكان.

عاد رجلا لبوليس إلى حديثهما. فقد كانا يتحدثان عن الحيوانات المختلفة الموجودة في المنطقة. وكان أحدهما يتحدث بصوت عال، أما الآخر فكان همّه الوحيد شرب المتَّة. أخذ إرنستو يصغي إلى حديثهما المشوق. فسألهما عن البغل، لكنه توقف عن الكلام وأحس بالحرج عندما شعر أن الجواب عن سؤال مفهوم. فالرجلان فهما ما كان يريده، لكنهما لم يجيبا ثم ساد صمت عميق، وغاب الثلاثة كل في عالمه الخاص، عندها أيقن إرنستو أنه من الصعب الدخول في عالم هؤلاء الرجال.

* * *

كان يجلس في منزل تشنتشينا وفي يده مجلة «الغرافيكا»، أخذ يقرأ عليها والابتسامة على وجهه: «23 شباط 1950: إلى ممثلي شركة الدراجات النارية «ميكرون»: أيها السادة، أبعث إليكم بدراجتي الهوائية ـ النارية من نوع ميكرون، التي قطعت بها أربعة آلاف كيلومتر في مختلف مقاطعات الأرجنتين الإثنتي عشرة، من أجل فحصها»، هل سمع الجميع؟ نعم أيها الرجال».

انتزعت تشنتشينا المجلة من يده، وأخذت تقرأ:

«خلال الرحلة، كان عمل الدراجة الهوائية ـ النارية على ما يرام، ولم ألاحظ أي خلل فيها. أرجو إعادتها إليّ في حالتها الأصلية.

إرنستو غيڤارا سيرنا».

ـ طفلنا المشاغب انحدر إلى الدعاية التجارية لدراجته، شيء مضحك! بالفعل إنه مضحك!

استدارت تشنتشينا نحو إرنستو، وبدا على وجهها غضب شديد. كانت مندهشة إلى حد أنها كادت تنفجر بالصراخ في وجهه، لكنها ضبطت أعصابها وسألته بعتاب:

ـ ما الذي أجبرك على العلاقة مع هذه الشركة؟ أمن أجل الدعاية؟ إنك من عائلة عريقة بعاداتها واسمها! أتريد أن تصبح كلمة يلوكها الناس؟

نظر إليها إرنستو نظرة تعبر عن عدم فهم. ثم ابتسم قائلاً:

ـ ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ لقد ذابت العجلات، وعدة قطع من المحرك أصبحت تتطلّب التغيير، ولم تكن في حوزتي نقود لإصلاحها. وبفضل هذه الرسالة أصلحت كل شيء مجاناً، وتابعت سيري.

* * *

أشار كارلوس إلى إرنستو عن إعلان في الصحيفة:

ـ انظر، يعلنون عن بيع أحذية بأسعار مخفضة.

ـ ماذا يعني ذلك؟ هل اهترأ حذاؤك؟

ـ لا، لا أقصد هذا، انظر، فالاعلان عن بيع بالجملة.

ـ وماذا أفعل بجملة من الأحذية؟

ـ ننتقي كمية منها، أفضلها، ثم نبيعها بسعر مضاعف، أو ثلاثة أضعاف. ما رأيك في هذه الفكرة؟

أعجب إرنستو بالفكرة، خصوصاً أنه كان يحتاج إلى المال.

لقد بيعت الدفعة الأولى من الأحذية الممتازة، ولم يكن بإمكانهما شراؤها لأن سعرها مرتفع. ثم بيعت الدفعة الثانية الأقل جودة، كذلك لم تكن تتناسب مع إمكانياتهما. بعدها عرضت المجموعة الثالثة، الأسوأ، لكنها لم تبع. وكانت تتناسب مع رأسمالهما. عندها، سرّ كارلوس، وهمس لإرنستو:

ـ هذه فرصتنا!

لم يعترض إرنستو على شرائها. وفي المساء، تحوّل منزل الأهل عند إرنستو إلى حانوت لبيع الأحذية. أخذا بتصنيفها. فكان بعض الأحذية من النوع الجيد. أخذها الصديقان إلى شوارع بيونس ـ آيرس، وباعاها كلها، لكنها لم تكن كثيرة العدد.

ـ ماذا نفعل بهذه الحثالة؟

ـ نرتبها باللون والحجم، ونبيعها بثمن بخس.

استعاد الصديقان، رأس المال. لكن الأحذية المتبقية كانت تختلف عن بعضها. ولا تتشابه حتى لزوج واحد.

بدا على إرنستو الانزعاج، لأنه كان ينتظر من بيع الأحذية تأمين رسوم الجامعة لإكمال الدراسة. لكنه، عاد يقول مبتسماً:

ـ كارلوس، يا صديقي الشيخ، بما أنه لم يبق إلاّ أحذية متفرقة، لا تشكل زوجاً واحداً، لدينا فرصة واحدة...

ـ ما هي؟ تكلم، ولا تطل الحديث.

ـ قرب البئر، مقابل الحديقة، يوجد رجل يصنع الناي من القصب.

ـ وما يعنينا من أمره؟

ـ إنه برجل واحدة.

ـ بالضبط.

حملا ما استطاعا حمله، وتوجها نحو البئر. بدت على الرجل الفرحة قبل أن يتفوه بكلمة واحدة؛ لأنه كان عادة يضطر لشراء زوجٍ كاملٍ من الأحذية.

ـ فكرة عبقرية. الآن أقضي حاجتي بنصف الثمن، ومن غير أن أشتري فردة ثانية لا حاجة لي بها. أتعملان في هذا المجال منذ مدة بعيدة؟

ـ لا، إنها البداية.

ـ إذا شئتما عنوان صديقي غونسالس، فهو برجل واحدة أيضاً، لقد تعرض لحادث سير. ويشكي دوماً من شراء زوج كامل. سيصبح زبوناً عندكما كما أعتقد. لكنه يسكن في حي آخر.

ـ هذه ليست مشكلة. أقدامنا لا تزال قوية. وسنذهب إليه.

وبالفعل، ذهبا إليه. ثم أخذا يسألان جميع الأصدقاء في الجامعة عن رجال برجل واحدة، حتى تمكنا من بيع الأحذية الباقية.

بعدها، أخذ إرنستو يفكر في طريقة مثلى للحصول على المال.

* * *

اشتم والد إرنستو رئحة كريهة تنبعث من الكاراج، وصلت إلى البيت والجوار. فقرر الذهاب لمعرفة المصدر، فوجد إرنستو يحمل بالونين، والأبيض يغطيه من رأسه حتى قدميه، وهو يسعل:

ـ ما الذي يحدث هنا؟ سأل الأب.

خرج إرنستو من الكاراج وهو ينفض الغبار عن ثيابه. أشار إلى الكاراج وهو يقول:

ـ هنا سيُبنى معملي الخاص الذي سيصنع مبيدات للحشرات.

ـ ماذا؟ ماذا تقول؟

ـ كما ترى، ربما سمعت عن مسحوق «غاميكلسان» الذي تصنعه وزارة الزراعة. فقد أثبتت تجاربي أنه مادة فعالة ضد الحشرات، لكنها قوية أكثر من المطلوب. لذا سأخلطها مع البودرة بنسبة 80% حتى تعطي فعالية عالية بأقل التكاليف.

ـ لكن رائحته حادة.

ـ لكنني لا أقدر عليها. أتساعدني في تعبئة المسحوق في البالونات؟ لقد اخترتها من حجم مئة غرام.

لكن الوالد رفض المساعدة.

ـ اعتبرني مطروداً من العمل. فأنا لا أتحمل هكذا رائحة. اذهب وفتِّش عن عمال آخرين من أصدقائك وزملائك في الدراسة!

بعد أن همّ الوالد بالخروج، عاد وسأل إرنستو:

ـ أخبرني، هذه العملية طويلة أو مؤقتة، هل تنوي فتح ورشة للعمل؟

ـ أنوي ذلك.

ـ إذا كنت تريد المساعدة، سأسأل صديقاً لي يساهم معك في رأس المال.

ـ أعتقد أن مشروعي يدنِّس أموال أصدقائك! لا.

في البداية، كانت أموال المشروع جيدة، وأثبت فعاليته، حتى أصبح الحديث عنه في كل مكان. لكن أحداً لم يتقدم لمساعدة إرنستو بسبب رائحته القوية. حتى اضطر للعمل فيه والرائحة تعلق

بثيابه وحده لفترة طويلة، مما جعله يملّ العمل، ويقفله، رغم أن عائداته كانت كبيرة.

* * *

كان يحدق بالملصق المعلق على الجدار. وكان يقرأ الكثير عن تعلق إرنستو غيڤارا بالمغامرات والرحلات. لكن، ما وراء كل ذلك؟

أهو تعطش للذكريات؟ أم هو طموح لرؤية العالم، أو رؤية البلاد الغريبة بصفة سائح؟ أم هو طموح لمعرفة الناس؟

كان يدرك أن ثمة لحظات نجد فيها ضرورة لنتعمَّق أبعد من المرئي والبدهي. فإذا كنت تريد معرفة نفسك، عليك أن تدرك العلاقة الخفية بين الأشياء، وأن تبحث عن القوى التي تقف وراء هذا العالم وتحركه، حتى لا تترك لها مجالاً للسكينة. وأول خطوة تخطوها في هذا المجال هي الاستعداد لفهم الآخرين ومعرفتهم، وعدم الاستسلام لما يبدو وكأنه قدر عليك إلى الأبد. عندها فقط، يمكنك أن تترك أثراً على هذه الأرض.

في طرقات أميركا اللاتينية

عندما انطلق إرنستو وألبرتو للترحال في دول أميركا اللاتينية، خبأ كل منهما مسدساً في حذائه للدفاع عن نفسه من خطر الحيوانات المفترسة. انطلقا على دراجة نارية، حاملين معهما خيمة يأويان إليها في حال عدم عثورهما على مكان للنوم.

بعد مسير ثلاثة آلاف كيلومتر، تعطلت الدراجة النارية، ولم يتمكنا من الوصول عليها حتى إلى سنتياغو ـ دي ـ تشيلي. فتركاها واستمرا في رحلتهما حاملين خيمتهما في الطرقات الوعرة. لقد بدت الطريق إلى ڤالبارايسو أمام إرنستو من دون نهاية. كانت قمصانهما المبللة بالعرق تلتصق بجسميهما، وحقائب الظهر أخذت تتثاقل مع كل خطوة، رغم سيرهما على سفوح الجبال.

في الطريق، جلسا على إحدى التلال المشرفة على ڤالبارايسو طلباً للراحة، والتمتع بجمال الطبيعة. عندها أنزل إرنستو الحقيبة عن ظهره، وبدا أنه يريد متابعة الترحال بسرور كبير، رغم هذا المسير الطويل والشاق. ثم أشار إلى ساحل ڤالبارايسو، وإلى السفن الراسية فيه قائلاً:

ـ آه، لو أنني أرى نفسي أبحر على إحدى تلك السفن باتجاه جزيرة باسخر. فهذا حلمي الوردي!

لا ينقصنا إلاّ هذا! فكّر الآن كيف تعالج قدميك المتورمتين، وكيف تخرجهما من هذا الحذاء.

ـ ألبرتو، اسمعني فقط: في جزيرة باسخر الرجل الأبيض بالنسبة للمرأة شرف رفيع. أما العمل: فهو أمنية، لأنهم جميعاً يقومون بكل الأعمال. وهي منطقة جميلة،طقسها رائع، ونساؤها تنطق الصخر بجمالها. وطعامها لا أطيب ولا ألذ. باختصار، هناك الجنة التي يتحدثون عنها. لمَ لا نبقى هناك سنة أخرى؟ الدراسة؟ الأبحاث العلمية؟ الواجبات العائلية؟ شكاوى؟ فهناك الجبال والنار.

ـ ها أنت تغوص في الأحلام من جديد! هيا، من الأفضل لنا أن نبحث عن مكان للنوم، وأظن أنهم سيطلبون الكثير مقابل ذلك.

ـ بالنسبة لي، سأبحث عن عيادة في الميناء، فربّما يحالفني الحظ بمن يبحر عبر المحيط.

بعد أن انطلق كل في طريقه، التقيا في المساء.

ـ لقد تبددت أحلامي بجزيرة باسخر كما يتبدد الدخان. فقد سألت جميع من في الميناء، فلن تكون هناك أيّة رحلة إلى الجزيرة قبل نصف عام.

ـ أرى أن حظي لم يكن أفضل من حظك. لقد عثرت على أولئك الأطباء الذين كنا نبحث عنهم باهتمام، لكنهم لم يرغبوا حتى بالحديث معي. فيا للحظ السيِّيء.

توجه ألبرتو في اليوم التالي للبحث عن أطباء آخرين. لكن، دون جدوى. وعند عودته، كان إرنستو يجلس قرب مدخل البنسيون، وهو يطرق في تفكير عميق، كما يدل مظهره، على ذلك وقال بصوت خفيف:

ـ لقد عالجت امرأة عجوز مصابة بالربو.

لم ينطق بغير تلك الكلمات. ثم جلس وحيداً يكتب على دفتره: كانت تلك الفقيرة تستدعي العطف على معاناتها. فالرائحة تنبعث من غرفتها، وتختلط مع الغبار الذي يغطي الأثاث القليل. ناهيك عن نوبات الربو والخلل في نشاط القلب. عندما يصدم الطبيب بهكذا حالة، يدرك أنه يفقد أية قدرة على إيجاد حل؛ لأن ذلك يتطلب تغيير أسلوب الحياة، ووضع حد لهذا الوضع الذي ينضح بالظلم. فهذه العجوز تقدمت منذ شهر بطلب للعمل في مشغل للخياطة. وكانت تتكىء على الطاولات أثناء قيامها بالتنظيف في العمل. ألا تستحق هذه المرأة أن تعيش عيشة إنسانية مكرمة معززة!

عندما يتعرف الفقير على ظروف الحياة الجديدة، تولد في داخله عدوانية يصعب إخفاؤها، عدوانية تجاه أولئك الذين لا يردعون أنفسهم عن نهش الآخرين. عندها، لا يعرف أباً أو أمّاً، أخاً، أو أختاً... ففي الصراع من أجل الوجود لا يوجد إلاّ عامل واحد فقط هو العامل السلبي. أو بكلمات أخرى، هناك موضوع عدواني نقيض لمجتمع الأصحاء. هناك مرض فيه شيء مهين للأصحاء؛ لأن على أصحاب تلك الأمراض أن يطعموا سيدهم.

ففي حياة شغيلة كل بلدان العالم، أولئك الذين يكون أفق أحلامهم في المستقبل الآتي، تكمن المأساة. وتكون واضحة في تلك العيون التي تقارب على الانطفاء، والتي يبرق منها الرجاء والدعاء والتسامح. فهي تبرق بالعيون الناظرة إلى اللاشيء.

إلى متى ستبقى هذه الحالة المبنية على فهم مشوَّه للحياة؟ لا أستطيع الآن أن أقدم إجابة عن هذا السؤال. لكن، آن الأوان كي تعي السلطة أن من واجبها تخفيض نفقات الدعاية لرجالها الأخيار، وزيادتها أكثر من أجل تحسين ظروف معيشة الناس.

ما الذي كان بإمكاني أن أقوم به من أجل مساعدة تلك المريضة؟ لقد وصفت لها نظاماً للأكل، وقدمت لها ما كان في حوزتي من حبوب الدراميين. حتى خرجت وهي تدعو لي بالخير، وتنظر إلى أقاربها دون مبالاة.

أغلق إرنستو دفتره، أيُّ جحيم هذا! ألم يحن الوقت حتى يتغير شيء ما لا يمكن الاستمرار على هذه الحال.

عندما توجها إلى الشمال، قررا استطلاع مناجم تشوكيكامات التابعة لإحدى الشركات الأميركية.

ـ انظر إلى هؤلاء الهنود الحمر، لقد جفّت أجسامهم من الجوع.

ـ أشك في أن يعيش واحد منهم أكثر من ثلاثين عاماً. من الواضح أن معظمهم يعاني من مرض في الرئتين، عدا سوء التغذية، وقسوة الطبيعة، والعمل الشاق كل يوم.

حاول إرنستو مع صديقه التحدث إلى بعض الهنود، لكنهم تهربوا. وبدا رجل من بعيد، لا يشبه الآخرين بحجمه، يلاحقهما بريبة، ثم اقترب منهما يسأل عن حاجتهما.

ـ إننا أطباء، باحثون، من الأرجنتين. قررنا استطلاع أميركا اللاتينية.

ـ ليس عندي اعتراض على سيّدين متعلمين. أنا هنا سائق وسكرتير المدير العام، وأقوم بمراقبة العمال كي لا يقوموا بأي تمرد.

تساءل إرنستو بحقد:

ـ معظمهم مرضى؟

ـ نعم، نعم، وبعضهم يشارف على الموت. يموتون كالذباب. نحن هنا بحاجة دائماً لمن يملأ الفراغ. لكن، يوجد الكثير من هذه الأوباش الهندية، وتكفي لوقت طويل.

ـ ألا تخافون من أن تقوم هذه «الأوباش» بتمرد ضدكم في يوما ما؟

سأل إرنستو بقسوة.

لكن، على ما يبدو أن هذا السائق ـ السكرتير كان من الغباوة بحيث أنه لم يدرك نية إرنستو غير الطيبة من وراء هذا السؤال. أو أنه على الأغلب، لم يكن يعتبر أن شابين متعلمين يمكن أن يكونا متضامنين مع الهنود.

وقال ضاحكاً:

ـ وممّ تخاف، هه؟ كل شيء تحت تصرّفي. فليجرؤ أحد منهم على ذلك. حقاً هناك من يلعب بذنبه في النقابة، ويعمل لإعاقة عمل شركتنا، ويحاول الأضراب كلما سنحت له الفرصة. لكنني أعرف كل ذلك. وقد أعطاني المدير بعض النقود، اشتريت بها عجلاً، ودعوت هؤلاء الخنازير المساكين إلى بيتي، لكنهم لا يعرفون كيف يقدِّمون الشكر على هذا التشريف. وبقيت قيادة النقابة وحدها. وهؤلاء الخنازير بعد أن ملأوا معداتهم، حبلت أعينهم. هه، هه، هه!

بعد عدة ساعات، وبعدما أطلّ القمر، توقف إرنستو الذي كان يحمل الخيمة على ظهره، ملأ رئتيه بالهواء، نظر من حوله، لوَّح بيديه، ثم عبَّر عمّا يكنه من غيظ في نفسه:

ـ ها هما وجهان لعملة واحدة! جمال البلد وثروته من جهة، والاضطهاد والتقليل من شأن الإنسان من جهة ثانية.

وانحدرت الأرض ببطء

عبر نظام الغابات المحتضرة

إليك يا ماتشو ـ بيكتشو الذي لا تطال

يا من تحتضن الغيوم على درجاتك الصخرية.

آخر مدينة تلك التي هي جوهر الأرض.

وهناك كما المتوازيان الضريران.

يتهادى الإنسان والبرق

بين خرائب ماتشو ـ بيكتشو قرأ إرنستو لـ «غرانادوس» تلك الأشعار لبابلو نيرودا. لقد هزّت هذه المناطق أعماقه. استنشق الهوءا بعمق، وبدا أنه كان يميز رائحة الأجداد العتيقة. أغمض عينيه مصغياً، فسمع أغانيهم، وعويلهم عندما جاؤوا إلى هنا مختبئين من الإسبان. لم يُكتشف هذا الملجأ في يوم من الأيام. فلم يكن لعين غريبة أن تدركه. هذه المدينة الصخرية المحاطة بالتلال الجبلية، كانت تحميها الطبيعة.

ـ في مكان ما من هنا، يجب أن يكون آخر كنز ذهبي لأجدادنا! قال إرنستو ذلك وعيناه مغمضتان. وبعدما نهض كان العرق يملأ وجهه، لكنه كان سعيداً، سعيداً جداً، كما لو أنه عاد إلى وطن كان قد هجره منذ زمن.

اقترب من بعض الورود كي يشتم عبيقها. كان منظر الزهور، والصخور العارية من خلفه قد جعلاه يسمو، ينتقل إلى عالم آخر، حيث الجمال والأساطير وطبيعة الجنة. تخيل وكأن الأرض ستنشقُّ الآن ليبرز منها محارب هندي أحمر، يحمل بيده مهمازاً ينتهي بكرة ذهبية، يدعوه للقاء قائد القبيلة. وكأن بإمكانهم وضع الخطط لمواجهة المحتلين الإسبان. وتخيل أنه سيلتقي في الممرات الأبدية ـ السرية في ماتشو ـ بيكتشو حسناء هندية بجلدها الذهبي الناعم، ستقدم له النبيذ و. . .

ـ إنني أموت عطشاً.

أخرج صوت ألبرتو إرنستو من عالم الأساطير.

ـ انظر، في أسفلنا نهر، أتراهن على أن ماءه بارد ومنعش؟ ما رأيك لو انحدرنا إلى هناك. في المناسبة. . .

ـ .

لن أذهب إلى الأسفل مهما كانت النتيجة!

قفز إرنستو إلى الأعلى على الأدراج الصخرية، وكان يرفع رجليه إلى الأعلى حتى تقارب وجهه.

ـ أراك تقوم بالتدريب الرياضي هنا يا صاحبي؟

ـ إنك عديم الفهم يا ألبرتو! لم هذه الأدراج مرتفعة هكذا؟ لا يمكن أن تصعد عليها كما تصعد على سلّم طبيعي.

ـ ما رأيك لو بقينا هنا لبعض الوقت؟ اقترح عليه صديقه.

ـ وننصب الخيمة. أومأ إرنستو بفرح. ثم أبعد يديه رافعاً إياهما كأنه يريد ضم ماتشو ـ بيكتشو كلّه وقال حالماً:

ـ القرف، هذا الدرج الضخم يحيِّرني. لقد بني هذا العجيب أناس مثلي ومثلك. انظر إلى هذه البيوت والمعابد! سيأتي يوم يفجر فيه أحفادنا سلاسل عبودية بناة هذه المدينة.

وأخذ الحلم ألبرتو أيضاً:

ـ سأتزوج من ابنة الأمبراطور الهندي، وسأعيِّنك رئيساً للوزراء. سنقوم معاً بثورة اجتماعية!

ـ لن تصنع شيئاً دون نضال. تصوّر: سيتوحد أحفاد هؤلاء الهنود في تجمعات ضخمة حتى يوجِّهون الضربة الانتقامية...

ـ سنلتحق بهم.

ـ بالطبع! وسنستعيد ألبيرو بجيوش الجبارة للهنود الحمر، وستملأ أصوات البشر ماتشو ـ بيكتشو من جديد. وتعلو أصوات الفرح في كل أنحاء البيرو.

لقد قضيا عدة أيام في ماتشو ـ بيكتشو. اهتم إرنستو خلالها بكل ما يتعلق بالحضارة الهندية.

ـ ماذا تريد أن تصبح في النهاية، طبيباً أو مختصاً بالآثار؟

ـ في البداية يجب الوصول إلى كوستو. فهناك توجد مكتبة كما

أظن. أريد أن أقرأ كل ما كتب عن هؤلاء الأجداد، ناهيك عن أن أفضل طريقة لقضاء أوقات الفراغ هي أن تقبع في المكتبة.

لقد وصلا إلى المستشفى بعد عدة أيام من الإرهاق الذي فعل بهما ما فعل: ففي الإحدى عشرة ساعة الماضية، كان المطر غزيراً، ولم يترجلا عن ظهر البغل. سأل إرنستو أحد عمال المستشفى عن إمكانية المبيت إلى حين تحسن الطقس.

ـ ربما يستمر الطقس على هذه الحال عدة أيام، فلن يكون بمقدوري ذلك. لكن، هناك صاحب بيّارة، يسكن على بُعد خطوات من هنا، ربما سيكون سعيداً باستضافة زائرين من الأرجنتين.

بالفعل، كان صاحب البيّارة مضيافاً وسعيداً بضيوفه. وكان الاستقبال ملوكياً: نبيذ، فاكهة، لحوم، خبز طازج. كما قدم لهما الطعام بسخاء، وملابس نظيفة، وفراشاً دافئاً. إنها ظروف ممتازة، يمكن لهما أن يتوقفا عدّة أيام للراحة، ينتظران بها الطقس الجيد، ويجمعان قواهما لاستكمال ترحالهما باتجاه ليما عاصمة البيرو.

عندما كانوا يحتسون النبيذ، حدثهم صاحب البيّارة عن أحواله:

ـ إنني أحتاج إلى الكثير من الأيدي العاملة، ومراقبي العمال. لقد اخترعت طريقة عبقرية في زراعة قصب السكر. فأنا أوزع الأرض على الهنود الحمر كي تفلح كل عائلة قطعة أرض منها. فهم يعملون دون أن يرفعوا أظهرهم، ينظفون الأرض كما يجب. وعندما يصبح العمل على خير ما يرام، وبعد زراعة قصب السكر، أستعيد الأرض منهم، وقد يحظى القليل منهم بجزء من قطعته التي زرعها. لكنني أطرد معظمهم، وأوكل إلى مراقبي العمال بتنظيف الأرض من الأعشاب الحمراء المتبقية. ثم أبعث برجالي لزرع الأرض المحرّرة. بذلك أقتصد كل عام مقدار... سأحسبها الآن...

كان إرنستو قد أبعد عن نفسه كأس النبيذ وطبق الطعام منذ بداية الحديث:

ـ هكذا تتصرف مع الهنود الحمر إذاً، ونحن لنا الطاولة مليئة بالطعام؟ كانت تظهر في صوت إرنستو نبرة تنمّ عن عدم الرضا الواضح.

ـ نعم، ولكن. . . ولكنكما من البيض.

ـ أيها الوغد! إنني أحتقرك! ألا يهمك أمر أولئك المعذّبين الذين يحتضرون من الجوع خلف نوافذ بيتك.

صرع صاحب الأرض من المفاجأة والإهانة، فهبّ واقفاً:

ـ بما أنني رجل حضاري، فلن أضطركما إلى المغادرة تحت المطر. لكن، عندما يصحو الطقس اعتبرا أنفسكما مطرودين من هذا البيت مباشرة.

ـ لا!

ـ ماذا تعني بلا؟

ـ لن ننتظر في هذا البيت حتى يصحو الطقس. قال إرنستو صارخاً. ومن الأفضل لنا الذهاب إلى الغابة حيث الهنود الحمر.

* * *

وصل إرنستو وصاحبه إلى بوغوتا على متن إحدى طائرات شركة الطيران الكولومبية.

ـ ما الذي يريده هذا الـ. . .؟

ـ أعتقد أنه يريد خنجرك يا إرنستو.

ـ خنجري؟ هيا أبعد يدك عني، وانصرف إلى الشيطان.

دفع الجندي إرنستو بطريقة وقحة:

ـ قلت لك هات الخنجر، هيا. ألا يعجبك كلامي!

لا يعجبني، فماذا أنت فاعل؟

هزّ الجندي الكولومبي بندقيته في وجه إرنستو.

ـ ما الذي تعتقده يا هذا، إذا كان في حوزتك بندقية، وعلى كتفك رتبة تستطيع التلاعب يمنة ويسرة. أليس كذلك؟ أتعمل بمبدأ «أفعل ما أريد»؟ قال إرنستو غاضباً.

هدّد الجندي من جديد ببندقيته مصوباً إياها باتجاه إرنستو. لقد تعقد الوضع. فهذا الوقح، يعتقد أن حالة الطوارىء العسكرية تسمح له بمصادرة كل ما هو جارح.

ـ انصرف من هنا أنت وبندقيتك، اختف من أمام ناظري، ولا تجعلني أرتكب خطيئة! قال إرنستو مهدداً الجندي بهذه الكلمات، مما زاد الوضع تعقيداً، وجعل من هذا الجندي وحشاً هائجاً. فالحديث لم يعد يدور حول سكين صغيرة، إنما أصبحت القضية ـ قضية شرف عسكري. وقرر الجندي أن يوجِّه لكمة إلى إرنستو. لكنه، ما إن لوّح بقبضته حتى شعر وكأن التنفس قد انقطع، فهمَّ بضربة أخرى، لكنه ما إن أفاق على نفسه حتى وجد نفسه مطروحاً على الأرض وقد جرِّد من سلاحه.

اعتقل إرنستو وألبرتو بعد هذه الحادثة بقليل. لكن إرنستو لم يأخذ هذا الحدث بجدية إلاّ بعد زيارة السفير الأرجنتيني لهما في السجن، وعندها أدركا أي مستنقع قد تورطا فيه.

ـ إن انتزاع السلاح من جندي في أوج حالة الطوارىء العسكرية وحده كافَ لاعتقالكما. لقد رجوت لأجلكما الرحمة. آمل أن أتمكن من مساعدتكما. لكن، عليكما مغادرة كولومبيا فور إطلاق سراحكما. لقد وجهتما إهانة مميتة إلى شرف الجندي، وهو الآن متعطش للانتقام. وربما يشاركه في ذلك زملاؤه.

فحياتكما في خطر.

بعد إطلاق سراحهما، توجها مباشرة إلى مطعم طلابي متواضع، والأحلام الرومانسية بوجبة طعام تملأ معدتيهما تجول في رأسيهما. وهناك، التقيا بمعارفهما القدامى:

ـ أما زلتما على قيد الحياة؟ لقد سمعنا أنكما جردتما أحد الجنود من سلاحه!

ليس نحن من فعل ذلك. أوضح ألبرتو محتجاً على صيغة الجمع.

صمت إرنستو تواضعاً.

ـ يا لكما من مرحين، تحبّان اللعب بروحيكما. عليكما الهرب بأقصى سرعة. لأن أصدقاء ذلك الجندي يملأون المدينة طولاً وعرضاً. إنه الآن لا يراهن على روحيكما. لكن، إذا وقعتما في قبضته، فعلى ذكراكما السلام.

ـ هذا صحيح يا إرنستو، يجب أن نهرب إلى فنزويلا.

ـ أنا لست ضد الهرب الآن، لكن من أين لنا النقود ذلك. يجب العمل في مكان ما ليومين على الأقل.

ـ لا وقت عندكما لذلك. يجب أن تختفيا بسرعة. وأفضل حل هو أن ننظِّم الآن في المطعم حملة تبرعات لكما.

قام بعض الطلبة بهذه الحملة، وجمع كمية تكفي لشراء تذكرتين في الباص الذي يذهب إلى فنزويلا.

في الطريق إلى فنزويلا تعطل الباص، وكان يحتاج إلى بعض الوقت للتصليح. نزل الصديقان على الشاطىء، وجلسا على الرمال الدافئة.

ـ لقد أخذنا نصيبنا من الترحال يا ألبرتو. وحان الوقت للتفكير أين لنا أن نستقر. إنني أشعر بالحنين إلى تلك اللحظة التي أتسلّم فيها شهادتي في الطب، وعندها...

ـ أما أنا أفكر في الاستقرار هنا، في مصح كابو ـ بلانكو في ضواحي لا ـ غواير.

ـ إذا تمكنت أنت من إيجاد فرصتك هنا، فربما أعود أنا أيضاً إلى هنا بعد امتحانات التخرّج. وأعمل حيث أنت. وبعد أن نتمكن من الحياة، نبحث عن السعادة في مكان آخر.

ـ أين؟

ـ لديّ رغبة تشدّني إلى غواتيمالا والمكسيك. ثم أضاف إرنستو، وهو يغمض عينيه حالماً: لكم تشدّني ثقافة المايوويين. سأدرسها بجدية هناك.

ـ أوه، أرى أنك لست طبيباً فقط، بل سيكون منك عالم آثار أيضاً. أما أنا فسأبقى في فنزويلا كي أخفف من معاناة الناس قدر الإمكان.

ـ وأنا أريد ذلك أيضاً. لكنني أشك في قدرة مهنتنا كأطباء على ذلك.

نظر ألبرتو إلى إرنستو مندهشاً لما يقوله:

ـ ألم تقل إنك تريد الحصول على الشهادة.

ـ بلى، وأريد أن أمارس مهنة الطب أيضاً. لكنني أرى ضرورة للتغيير. التغيير الحقيقي الذي يكفل القضاء عل مآسي البشر، وعلى أسباب المرض، وهذا لا يستطيع تحقيقه العلاج الطبي وحده.

ـ ماذا تريد أن تقول من وراء ذلك؟

أشار إرنستو بيده إشارة غير محدودة، ثم قال:

ـ أعتقد أن ثروات هذه البلاد من المعادن، ومن الأراضي الخصبة، يجب أن تخدم جميع الناس، لا أن تخدم بعض

العائلات الغنية فقط، أو الشركات الأميركية. فهؤلاء يشكِّلون ورماً سرطانياً، لا يمكن القضاء عليه إلاّ باستئصاله النهائي.

* * *

حدّق إرنستو في تلك الرسالة بتمعُّن. لقد عانى الكثير من جراء السفر. وكانت قراءة خط عمِّه صعبة جداً.

ظلّ في المطار حاملاً هذه التوصية طيلة خمسة أيام، حتى وجد، أخيراً، الطيار الذي كان عليه أن يسلِّمه الرسالة، وهو صديق قديم لعمّه. قرأ الطيار الرسالة مباشرة، ثم قال:

لا اعتراض عندي، يمكنني اصطحابك معي إلى ميامي. ومن هناك سأنطلق إلى بيونس ـ آيرس.

كاد إرنستو أن يطير من الفرح، لأنها الفرصة المريحة التي أتاحت له المجال كي يعود إلى البيت قبيل بدء السنة الدراسية. لكن، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد حصل تغيير في طريقهم، إذ قضوا شهراً كاملاً في ميامي، حتى أصلح عطل أصاب محرك الطائرة.

* * *

كانت الفرحة تملأ صدره وهو يسير في ممرات الجامعة واضعاً يديه في جيوب سرواله. وبينما كان يقرأ إعلاناً على أحد الأبواب، فجأة عمَّ جسمه ضعف غريب. شعر للحظة وكأنه عصر كحبة ليمون. استنشق الهواء ليملأ به رئتيه، وكان عليه في هذه اللحظة بالذات أن يكون في قمّة نشاطه، لأنها لحظة الوداع للبروفسور سلفادور بيزاني الذي قدم له الكثير.

كان البروفسور يجلس خلف مكتبه يطالع في مجلة طبية عندما

رأى إرنستو. نهض من مكانه ليهنِّىء الطبيب الشاب.

ـ عزيزي غيڤارا! لا تتخيل كم كنت سعيداً أثناء دراستك التي كانت من نوع خاص. كنت أحسب هذه النهاية الناجحة. لقد تغيبت كثيراً، لكن، يبدو أنك تعرف قدرتك على الدراسة الذاتية. وأنا أعرفك وأعرف هذه القدرة لديك، فماذا عساني أقول لك بعد هذه السلسلة من النجاحات، حيث قدّمت أربعة عشر امتحاناً كاملاً خلال أربعة أشهر. فأنت تهب نفسك لأي عمل تختاره، أليس كذلك؟

ـ لكن، لم يكن ذلك بالأمر السهل. أجاب إرنستو والابتسامة على وجهه.

ـ ماذا تعني بـ «لم يكن ذلك بالأمر السهل»؟ هذا إنجاز رائع. إلى الأمام! هيا نتحدث باقتراحي: أن تقوم بالعمل معي كمساعد في البحوث العلمية. فأنا معجب بعملك. وأصبحت لديك خبرة غير قليلة بعد هذه السنوات من العمل في المختبر. ويمكنك إتمام الأبحاث التي بدأت بها أثناء الدراسة الجامعية. ولن تكون هناك مشكلة، فأنا سأهتم بذلك.

ـ أقدِّر هذه الثقة، وأشكرك عليها. لكنني جئت لأودعك أيها البروفسور.

ـ ماذا؟ تساءل البروفسور. هل لديك عمل أفضل؟

ـ لا... قال إرنستو مجيباً. أريد أن أنطلق من جديد في طريق أدرس فيها أميركا اللاتينية. أريد رؤية قارتنا طولاً وعرضاً كي أتمكن من دراستها. وهذا يأخذ مني على الأقل مدة عشر سنوات.

نظر البروفسور إليه نظرة تشكيك.

ـ ماذا أنت؟ طبيب أم مشرد جوال؟ أم أنك تمزح. إذا كان ما تقوله من مزاحك المعهود فهو غير ناجح.

ـ لا. أنا جاد فيما أقول. لقد بعثت إلى صديقي غرانادوس بـ. . .

ـ غرانادوس! غرانادوس! يكفي أن أسمع هذا الاسم حتى أفهم كل شيء. سيوصلك إلى مصيبة. مثل رحلتكما الماضية التي استمرت ثمانية أشهر في ربوع أميركا اللاتينية، حين تركتما الدراسة. على كل حال أصبح ذلك من الماضي. لكن الآن، اسمع ما سأقوله لك: عندما تصبح طبيباً قادراً من الناحية المادية، اشبع من الترحال. عدا عن ذلك، ينتظرك في أبحاثك العلمية هنا ترحال بما فيه الكفاية.

ـ سأعمل مع غرانادوس في مصحٍ. وأيضاً سأقوم بالأبحاث هناك. قال إرنستو ذلك مظهراً عناده.

إما أن نحقق الحرية وإما أن نبقى معذّبين

أطل العِكاك الضاغط على (غوياكيل). وتدفق قرص الشمس المتلظي سابحاً على شواطئ (غواياس). انطلق إرنستو من جديد بعد امتحانات التخرج مباشرة. وفي الطريق من بوليڤيا إلى الأكوادور، انضم إليه المحامي الشاب إرنستو روخو وكاليكا.

لقد تعرفوا في غوياكيل على ثلاثة شبان من الأرجنتين، كانوا يرغبون أيضاً في السفر إلى كولومبيا. لكن الرغبة وحدها لا تكفي. فالحصول على تأشيرة دخول إلى كولومبيا يتطلب إبراز تذكرة الطائرة إلى سلطات مدينة بوغوتا. لكن، للأسف، لم يكن مع أي منهم مبلغ من النقود يكفي ثمناً لهذه التذكرة، فاضطروا للبقاء في غوياكيل، واستأجروا غرفة صغيرة فيها سرير واحد. واتفقوا على أن النوم عليه يكون من نصيب أول العائدين إلى الغرفة، أما الباقون فيفترشون الأرض.

أثناء وجودهم في مطعم اتحاد عمال المدينة الصغير، لبحث الظروف الحرجة التي وقعوا بها، تبين أن لدى روخو رسالة توصية من قائد الاشتراكيين التشيليين السلفادور الليندي إلى أحد المحامين. اقترح على أساسها البحث عن هذا المحامي وطلب مساعدة مالية منه. وكان إرنستو مع وجهة النظر هذه، أما الأربعة

الآخرون فهزوا أكتافهم قائلين: «من تراه حتى يساعد جياعاً مثلنا؟».

كانت أبواب مقر اتحاد العمال مشرعة، حيث جلس الأصدقاء في الصالة التي قلّما تهب عليها نسمات خفيفة. أخذوا يحتسون البيرة المثلّجة، مع شرائح لحم الخنزير المحمصة، التي لم تكن مرتفعة الثمن في هذا المطعم، وهذا ما جذبهم إليه رغم وضعهم الحرج.

ـ هيا بنا يا خورخو، ستكون محاولة جادة إذا ما بحثنا عن هذا الحقوقي. قال إرنستو لصديقه. ثم نهضا بعد أن اتفقا مع الآخرين على انتظارهما في المطعم. كان لقاء المحامي مفاجئاً لهما حيث كان للرسالة وقع العصا السحرية عليه، إذ اعتبرهما من الحلفاء، فقدم لهم المساعدة، وبات بإمكانهم متابعة الرحلة...

بعد مغادرتهما مكتب المحامي، كادا يطيران من الفرح. وفي الطريق أخذا يرقصان ويمزحان حتى وصلا إلى المطعم. فصرخ إرنستو:

ـ كل شيء على ما يرام! ست تذاكر مدفوعة الثمن إلى سفينة الموز(*). ست! أريد كأساً من البيرة حالاً، يجب ع يكون مثلّجاً كالجليد.

ـ هكذا إذاً؟ ذهبتما إلى ذلك القانوني؟ سأل أحد الأرجنتينيين.

ـ ماذا تظن؟ قال إرنستو ضاحكاً. هل تعتقد أنني ذهبت من أجل خطوبة؟ قال ذلك وهو مستمر بالضحك طالباً وجبة مزدوجة من شرائح لحم الخنزير. وشرب ما تبقى في كأس كاليكا من البيرة. فاختطف كاليكا الكأس من يده وصرخ:

(*) يقصد بها الإكوادور. (المترجم).

ـ ما هذا؟ أعاجز أنت عن الطلب لنفسك؟

ـ لا.

ـ لماذا، هاه؟

ـ لأنني أنفقت كل ما في حوزتي من المال.

قام روخو بتقديم كأس من البيرة لكل منهم احتفاءً بالتذاكر المجانية.

ـ غيڤارا، هيا بنا إلى غواتيمالا. لكن، بحق جميع القديسين، ما الذي نسيته في فنزويلا؟ هناك، لا يوجد غير تبذير النقود!

أجابه إرنستو بجدية كاملة:

ـ أريد أن أبحث هناك عن صديقي غرانادوس. وأفكر في أن أعمل كطبيب عام في أحد المستوصفات، وفي الوقت نفسه أقوم بالأبحاث العلمية..

ـ أهذا كلام؟ وتشدك الأبحاث أيضاً؟ ألم تقل منذ فترة غير بعيدة إنك تريد دراسة الأماكن الأثرية في غواتيمالا، لأنه يمكننا أن نرى فيها ما هو أكثر أهمية ومتعة. حيث توجد فيها الآن ثورة حقيقية، وإصلاح زراعي، وعمل جادٌّ وواسع من أجل القضاء على الأمية، شيء ما حقيقي تحرك في بقعة ميتة. لقد بدأ اليانكي بفقدان سلطته وتأثيره. هيا بنا معاً، ولو لمدة شهرين على الأقل، بعدها تطير إلى غرانادوس، وتقوم بما يحلو لك.

ـ حقاً لديّ رغبة جامحة في السفر إلى غواتيمالا ـ قال إرنستو ـ وأرى هناك ثورة حقيقية. لكنني وعدت غرانادوس.

ـ هاه، هل أنت مخطوب له أم ماذا؟

بقيا يتحاوران حتى نام القيظ وغابت الشمس.

ـ أرجو الانتباه! غطى صوت إرنستو على عموم الهمهمة ـ التهرب من رؤية الثورة الحقيقية شيء مخجل. وعلى صديقي غرانادوس أن ينتظر. فإلى غواتيمالا!

ردّد الجميع بصوت عالٍ:

ـ إلى غواتيمالا! عاش الرئيس إرينس(*)!

يمكنني أن أساهم في الثورة كطبيب.

ـ عمل مقدّس.

ـ لذلك يجب أن نشرب. هل بقي مع أحدكم شيء من المال؟ قال إرنستو.

ـ أنا أرهن ساعتي.

ـ إذاً، نطلب ست كؤوس من البيرة!

طالت الجلسة حتى احتج صاحب المطعم. ولم تكن لديهم رغبة في العودة إلى تلك الغرفة الضيقة. وفي الطريق علّق أحدهم على موضوع النوم:

ـ كيف سننام هذه الليلة؟ ها نحن نعود معاً، وليس بيننا من سبّاق إلى السرير، فكيف سنتدبر أمرنا؟

اشتم إرنستو أن الظرف يسمح له، ولو لمرة واحدة، بالنوم العميق في سرير منفرد. صحيح أن الحر في هذا القفص الكبير لا يطاق. لكنه لا يؤدي إلى الشعور بالقرف إلى تلك الدرجة التي يشعر فيها أثناء النوم في تلك الغرفة ـ الزنزانة حيث الحر إضافة إلى رائحة العرق المنبعثة من أجسادهم يعتبران تعذيباً بحد ذاته.

ـ تعالوا نرى سروالي الداخلي، يمكنه أن يقف في أي مكان تضعه فيه. قال إرنستو.

ـ هاه، أنت بنفسك تقف على رجليك بصعوبة.

ـ لكن سروالي الداخلي يقف بقوة حديدية.

ـ أرغب في أن أراه بنفسي.

(*) إرينس: رئيس جمهورية غواتيمالا في ذلك الوقت.

خلع إرنستو ملابسه، وألقى بسرواله إلى الزاوية. بعدها خلع سرواله الداخلي، وقال:

ـ سروالي قذر إلى درجة يستطيع معها الوقوف كالعمود في أي مكان.

كان إرنستو كالساحر، لقد عرض سرواله على الجميع ووضعه على الأرض. وبالفعل، وقف كأنه مشمّع. وما إن كان الجميع يمسحون الدموع عن أعينهم من كثرة الضحك، حتى كان إرنستو في السرير، وأمّن بذلك ليلة هادئة إذا ما قورنت بالليالي السابقة. وهو يقول:

ـ مع الوقت، سأعلِّمه على المشي أيضاً.

* * *

كانت الأيدي تتقارب وتتلامس، ثم تفترق من جديد أثناء حديثهما. كانت تتلامس تكراراً، لكن الفراغات بينها كانت تتسع ببطء. تتحرك لا شعورياً، وتتجه الواحدة نحو الأخرى دون توجيه. كانا يتحدثان عن أمور مختلفة تماماً. وينظر أحدهما إلى الآخر نظرات مليئة بالجدية.

ـ لا، لقد بعثت الثورة البوليڤية اليأس في نفسي. تخيَّلي، لقد طالب الهنود الحمر هناك بإعطائهم قطعة أرض واحدة فقط. لكن، أجاب الموظفون برشِّهم بمسحوق أبيض يشبه الـ د.د.ت. لقد فكرت أنني سأنتهي في هذا المكان. سألتهم: ماذا يعني ذلك؟ شرح لي أحد هؤلاء المستخدمين أن هذا العمل ضروري كي لا يجلب الهنود الحمر الحشرات الضارة إلى المكتب. حتى أنك لا تتخيّلين كيف احترقت غضباً. هذه الثورة طريق غير الطريق التي أبقى من أجلها هناك، حيث...

قاطعته إلدا قائلة:

ـ لكن يا إرنستو، من غير الصحيح أن تحكم على ثورة من

خلال مواقف متفرقة وعشوائية. ثم تضع عليها علامة x؛ لأن واحداً منهم فقط لم يستوعب ما جرى. بحسب وجهة نظري، إن مبعث الذعر الذي يقبل المقارنة هو أنهم لم يصفوا مثلاً مسألة التبعية للاحتكارات الأميركية، وأنهم يستخرجون المواد الخام ليشترونها بضاعة جاهزة من الدول التي تصدر إليها. ثم من جديد، أين المفرّ من أن الولايات المتحدة هي المستورد الأساسي لقصديرهم، وهو كما تعلم، يشكِّل المادة الأساسية في بوليڤيا.

زاد إرنستو حاجبيه تطيباً:

لمَ لا يبيعون قصديرهم إلى الاتحاد السوفياتي، حتى يتخلصوا من قبضة التروستات الأميركية القاتلة.

ضحكت إلدا بشكل مفاجىء بصوت عال.

ـ ما بكِ؟ هل قلت شيئاً ينمّ عن غباء؟ أو شيئاً يدعو إلى الضحك؟

ـ لا يا إرنستو. طبعاً لا. اللهم إنني كلما تذكرت لقاءنا الأول لا أتمالك نفسي من الضحك.

ـ هاه... أنا لا أتذكر من ذلك اللقاء سوى أنني أحسست نفسي مصاباً بالجرب، وانتظرت نوبة الربو اللعينة.

ـ هكذا كانت المسألة بالضبط. ولهذا السبب ربما كنت تجلس كديك أصيل متفاخر! لقد اعتقدت منذ ذلك الوقت إنك مخلوق تحب نفسك جداً. كنت تجلس طول الوقت نافخاً صدرك، صامتاً، لا تعلِّق إلاّ بنعم أو لا فقط. آخ، كم أثرت حنقي في ذلك اليوم. طبعاً! يخطر على بالي أن منظرك كان من أجل السيطرة على نوبة الربو. ناهيك عن أنني عندما رأيتك على تلك الحال قلت في نفسي: «إنه مغرور بنفسه زيادة عن اللزوم. لكنه، يمكن أن يكون ذكياً أيضاً».

قهقه إرنستو، لكن، استمرت إلدا في متابعة كلامها:

ـ فيما بعد، وفي لقائنا الثاني فقط، تملّكني الإعجاب، وغيرت حكمي عليك، عندما عبّرت عن وجهات نظرك السياسية. وما زاد في إعجابي علاقتك بمهنة الطب، حيث تحدثت عنها بشكل رائع قائلاً: إنك كطبيب لن تخدم الطبقة الغنية بأي شكل من الأشكال، وإنك لن تعالج أولئك المرضى الذين لا يفكرون إلاّ بأنفسهم، تماماً كأولئك الذين تأتي أمراضهم من التخمة.

ـ إلدا، إذا كان هذا يعجبك، ويلفت انتباهك، فبإمكاني أن أعرض عليك الصفحات الأولى من مقالاتي. لقد استعرضت فيها وضع الطبيب في بلدان أميركا اللاتينية. ولهذا بالذات تجولت ـ كما تعلمين ـ في كثير من البلدان. لقد كتبت عن المساعدات الحكومية القليلة في ميدان الخدمات الطبية. وحاولت أن أستعرض وضع هذه الخدمات التي لا تزال حتى اليوم في حال تدعو إلى البكاء.

بعد هذا اللقاء. غاب إرنستو عن إلدا عدة أيام. «أتراها لاحظت غيابي؟»، كان إرنستو يفكر بذلك عندما كان يديرقرص الهاتف ليطلب رقم معهد تطوير الاقتصاد الوطني لغواتيمالا.

ـ أرجو الاتصال بالسيدة إلدا، قسم البحوث الاقتصادية.

ـ أنا إلدا، مع من أتحدث؟

ـ إلدا؟ أنا إرنستو. لم أستطع زيارتك، وحتى مكالمتك عبر الهاتف بسبب الربو الذي لم يتركني. أريد أن أراك.

ـ أنا سعيدة بذلك. لكنني لم أعرف ماذا حصل لك. سأحضر بعد انتهاء الدوام.

ـ هذا لطف منك. إلى اللقاء.

أخذ يحدّث نفسه، وهو يضع سماعة الهاتف: لا شك أنني أعني شيئاً ما لإلدا.

عند وصولها إلى باب البنسيون الذي يقع في الشارع رقم 5، حيث يستأجر إرنستو غرفة هناك، شهر باقتراب نوبة الربو من جديد. وهو يلقي التحية عليها، شعر بارتفاع الضغط في الرئتين، فشهق شهقة الغريق وهو يعب الهواء عباً. أخذ يفكر لا شعورياً، هذه النوبات هي عملية إخراج للهواء المؤكسد من الرئتين. فجأة بدا وكأنه يختنق، وتورم وجهه، وبدا عليه رشح.

ـ إرنستو، عليك بالاستلقاء حالاً! تابعته إلدا باضطراب شديد.

ـ عظيم، لقد وصلت. إنني أتنفس بصعوبة. يجب أن آخذ حقنة وأعود.

ـ سأساعدك على صعود السلم.

حاولت إلدا أن تأخذه بيدها. لكنه أبعدها. وصعد ببطء شديد: «لا أريد شفقة! لا أريد!». هذه الفكرة دفعته لصعود السلم وحده وهي تطرق رأسه.

أخذ يصعد السلم درجة درجة من دون توقف، حتى وصل إلى الغرفة. وما إن فتح الباب حتى اندفع نحو السرير. لكنه لم يستلقِ عليه، بل اتكأ إلى الحائط.

ـ ربما لو استلقيت ـ قالت إلدا.

ـ لا، ستسوء حالتي لو فعلت ذلك. لو سمحتِ أعطني الحقنة. إنها ملقاة على الطاولة.

أثناء تحضيره لساعده، شعر وكأن التنفس أصبح مستحيلاً. حاول إدخال الإبرة في ساعده الأيسر.

ـ يا لشيطان الوريد؟

صرّ أسنانه وهو يحاول إدخال الإبرة مرة ثانية، لكنه لم ينجح إلاّ في المحاولة الثالثة.

ـ أرجوك، ادخلي الدواء في الوريد.

كان قلبه يدق. فجأة، تملّكه ذعر شديد. لكن، كان عليه أن

يتمالك أعصابه مهما كلّف الثمن.

أخذ الأرونالين يتسرب إلى الوريد ببطء شديد، واستغرق الحقن مدة دقيقتين. وعندما لاحظ توقفه، انتزع الحقنة من يده بقوة، حتى سقطت عل الأرض. وأخذ التنفس يعود إلى طبيعته بشكل تدريجي.

ـ ماذا عساني أفعل لك يا إرنستو؟

ـ لا شيء، لا شيء. سيكون كل شيء على ما يرام. هذا الدواء ذو تأثير سريع.

* * *

كان يقرأ باهتمام شديد، وشفتاه تتحركان وكأنه يتحدث مع نفسه. ومن حين لآخر يلقي بالكتاب جانباً، ويسجل شيئاً ما. لكنه لم يلحظ قدوم إلدا.

ـ ماذا تفعل يا إرنستو؟

قفز إرنستو من مكانه، وضم إلدا بفرح، ثم قال مجيباً:

ـ أترجم كتاباً لغرالد أوايت إلى الاسبانية.

ـ غرالد أوايت؟ من تراه يكون؟

ـ كتب كتاباً عن الماركسية. إنه Gringo(*) جيد. لقد أثارت الرأسمالية غضبه، وهو يريد أن تكون الدنيا مختلفة تماماً عما هي في بلاد اليانكي، وهذا ما شدّني إليه، إضافة إلى أنني آمل في الحصول على بعض النقود من وراء الترجمة.

ـ انظروا؛ أمترجم أنت شيئاً؟

أبدى إرنستو اعتراضه بحركة من يده. ثم سألته إلدا عن كيفية عثوره على خوسيه بوسادس. فهو يقود عمل معسكر لتربية الأحداث من أطفال ومراهقين.

(*) هكذا يسمى سكان الولايات المتحدة في بلدان أميركا اللاتينية.

ـ لقد جمع أولئك الذين هربوا من بيوتهم، أو الذين يعيشون من وراء السرقة. على كل حال، هذا ليس ذنبهم، بل هو قضيتهم. لقد ساروا في هذه الطريق المغلوطة بذنب المجتمع، فهو الذي اضطرهم للسير عليها نتيجة الظروف القاسية التي وجدوا أنفسهم فيها. إذ لو كانت هناك ظروف أخرى لنشأ أناس يتصرفون بشكل طبيعي.

ـ الحق، حق ـ قال إرنستو ـ وأنا أعتقد أن هؤلاء الأطفال ليسوا سوى ضحايا الجوع، والأمية، واللامبالاة التامة من طرف المجتمع. من هنا منبع الجريمة. لذلك بالذات، يحرم البلد من القوى القادرة على العطاء.

ـ خوسيه بوسادس يبحث عن مخرج من هذا الوضع، ففي سان خوسيه ـ دي بيثول ظهرت مدينة أطفال حقيقية، ويريدون. . .

ـ مدينة أطفال.

ـ بالضبط، ناهيك عن موقعها ذي الطبيعة الخلابة فعلاً.

ـ ما رأيك في السفر إلى هناك يا إلدا؟ أتمنى لو تتعرفين على هذه التجربة، وتتعرفين على خوسيه بوسادس، أي تضربين عصفورين بحجر واحد. ثم، إذا كان الأطفال هناك مرتاحين من الصراع من أجل البقاء، ألا يعني ذلك أن إنساناً جديداً ينمو؟

كان معظم زوار البنسيون الذي يحمل اسم «سرفانتيس» ضيوف إلدا وإرنستو، كانوا يريدون رؤية إلدا لأنها تعمل في قطاع الوزارة، وغالباً ما تصلها المعلومات والأخبار أكثر من غيرها. كما كان من بين الزوار كوبيون وبعض الطلبة.

ـ أليس انتزاع الأراضي من هذه العجيبة الخضراء(*) خطأ؟ سيعتبر اليانكي أن في ذلك محاولة للإطاحة بالحكومة.

(*) المقصود بذلك «يونايتد فروت كومباني» (الولايات المتحدة). (المترجم).

كان هذا السؤال من قبل أحد الطلبة مدعاة لضحك إلدا.

ـ منذ تأسيس الحكومة عندنا حدثت أربع وعشرون محاولة من قِبل الـ «يونايتد فروت» لتحقيق ما تقوله. لكن في كل مرة، كان يجري كشف المحاولة ويتم إفشالها.

ـ لم يكن ذلك بفضل جهاز الأمن فقط ـ تدخل إرنستو في الحوار ـ إنما، بحسب اعتقادي، بسبب الصفوف الكاملة من البروليتاريا والفلاحين الذين امتشقوا السلاح لضرب المتمردين. لكن، يجب أخذ الحذر الشديد، لأن صحف الولايات المتحدة تزخر بالشتائم ضد غواتيمالا، وتصفها بـ «الأخطبوط الشيوعي في أميركا اللاتينية!»، و«يد موسكو!». وما إلى ذلك من الاختلاقات المنتشرة، التي لن تكون من دون هدف بالطبع!

كل ذلك هراء! ففي غواتيمالا لا توجد حتى سفارة سوفياتية. والإصلاحات الجارية تحمل بالأساس طابعاً رأسمالياً، وتتعزز مواقع القطاع الخاص. والرئيس إرينس يسعى إلى إرجاع الأرض والقوى العاملة إلى البلد فقط.

ـ يبدو أن هناك محاولة لإجراء إصلاح زراعي ـ قال أحد الطلبة ـ فقد سُنّ قانون أخذت الأجور تدفع على أساسه، وهذا لا تقبل به التروستات الأميركية؛ لأنها ستضطر إلى دفع الضرائب التي لم تكن تدفعها منذ وجودها على هذه الأرض! ناهيك عن محاولة انتزاع ملكية مئة وسبعين ألف هتكار تابعة للـ «يونايتد فروت».

علّقت إلدا على ذلك قائلة:

ـ لكنهم بالمقابل، أخذوا التعويض الذي قدّروه بأنفسهم.

ـ إنه سخف! قال إرنستو غاضباً ـ كان الثمن مخفضاً بشكل

واضح. لقد قدّروا ثمن الأرض بشكل منخفض جداً، حتى يتهربوا من دفع الضرائب الباهظة المطلوبة منهم.

❋ ❋ ❋

لقد جهَّز أرماس(❋) عدداً من المأجورين والمرتزقة في الهندوراس. ويقال إنه يتسلّم شهرياً من الولايات المتحدة حوالى 150 ألف دولار ينفقها على الجيش وعلى التسليح. لقد أوكلت إليه مهمة الإطاحة بحكومة إرينس.

اهتم إرنستو بذلك، وتساءل:

ـ أكثير من الغواتيماليين يعملون تحت إمرته؟

ـ يقال إنهم ليسوا بكثير! بل أكثرهم من بلدان أخرى، وأغلب المرتزقة من الأميريين، ولديهم طائرات مقاتلة وطيارون. لقد أثاروا الضجيج لأن الحزب الشيوعي يعمل بشكل علني، وبشكل خاص، كونه شارك في الانتخابات.

ـ لكنه لا يحتل إلاّ أربعة مقاعد في الكونغرس.

ـ لكنّ إرينس يتعاون معه.

بعد نقاش طويل، خرج إرنستو بصحبة إلدا للتنزه، وهو متوتر الأعصاب. كانا يسيران وإرنستو يضمّها إلى جنبه، والنسمات المسائية تقوم مقام المهدِّئ. توقفا في الطريق للحظة، والصمت يلفهما، شعر إرنستو خلالها أن الوضع السياسي يشكل له خواطر شيطانية لذلك، رغب في ضمِّ إلدا، لأنه شعر بها سنداً ودفئاً.

❋ ❋ ❋

فُتح الباب فجأة، وكاد يهوي على الأرض، ثم اقتحم الغرفة نيكّو الكوبي. كان ثائراً من شدّة الغضب.

ـ الأوغاد! الأوغاد! عصابات أرماس هاجمت غواتيمالا من

(❋) الرئيس المخلوع.

أراضي الهندوراس. لقد بدأت اللعبة علناً، وأفلت اليانكي كلابه من عقالها.

ـ لا داعي للاضطراب! قالت إلدا بهدوء ـ من المحتم أن الجيش سيقوم بواجبه.

ـ عن أي واجب تتحدثين! لقد أمر إرينس الجيش بعدم التدخل في المعركة.

أخذ نيكو يحرك قبعته وهو مضطرب، وانفكأ إرنستو إلى المذياع.

ـ لقد بدأوا بإطلاق النار على النواب وعلى النقابيين. والملفت للنظر أن أول ما قاموا به هو احتلالهم للمنطقة الزراعية التابعة للـ «يونايتد فروت».

ـ لماذا لا يدفع إرينس بالجيش لصد الهجوم؟ تساءلت إلدا بعجب.

ـ لأنه جبان! صرخ نيكو.

ـ ليس الأمر كذلك! رفع إرنستو يده معترضاً ـ إنه يعرف أن الهندوراس تنتظر أية فرصة حتى تثبت ودّها وحسن نيّتها تجاه الولايات المتحدة. والنظام في الهندوراس لا يخطو خطوة واحدة إلاّ بعد تأشيرة من أسياده أصحاب الاحتكارات الأميركية.

ـ هل تتوقع أن يقوم إرينس بالتنازل عن جزء من الأرض إلى عصابات أرماس؟ تساءلت إلدا.

ـ نعم، أنا أضع هكذا احتمال. لكن، المهم أن نقوم بكل ما نستطيع فعله من أجل صدّ المرتزقة ومنعهم من التوغل في أرض غواتيمالا.

لم يكن نيكو حتى هذه اللحظة قد سيطر على نفسه وتحكّم بأعصابه الهائجة، فصرخ بصوت عال:

ـ أنا لا أفهم لماذا احتاجت «اليونايتد فروت» إلى قطاعي

الرؤوس من مرتزقة أرماس، بينما العدو موجود داخل العاصمة؟ فسفير الولايات المتحدة متخصّص من الدرجة الأولى في تدبير الانقلابات، كذلك في إقامة الديكتاتوريات! ولديه اتصال مباشر مع أرماس، لأن مساعدته بالذات مكَّنت أرماس المخلوع من الحصول على آليات ووسائل هجومية أخرى.

شدّت إلدا يد إرنستو بعصبية.

ـ ماذا علينا أن نفعل الآن؟ ماذا؟

ـ سندخل في التعبئة العامة ونقاتل. ماذا يمكننا غير ذلك.

* * *

كانت ألسنة اللهب تنتشر في كل مكان، وفي جميع الاتجاهات، وترتفع طموحة إلى السماء. أما أسطح المنازل المبنية من القشّ والقصب فقد تهاوت إلى الطريق. وكانت الأمواج البشرية تحاول قدر طاقتها إطفاء النيران المشتعلة. لكن، هيهات هيهات، فلم يتمكنوا إلاّ من إطفاء زاوية واحدة من الطريق. لقد قصفت مقاتلات أرماس العاصمة، ونالت طرق المواصلات الرئيسة حصّة الأسد من القصف المتواصل.

قام إرنستو بالمساعدة على تأمين الذخيرة للمدافع المضادة للطائرات. كان يختار أثقل الصناديق ليحملها، وينقلها من الشوارع التي امتدت إليها النيران. لكنه شعر بغثيان من رائحة القنابل المتساقطة وشدة ضغطها.

ـ إرنستو! لا يمكنك المرور من هنا! هيا نلتف من الجهة الثانية! صاح به أحدهم.

كاد أحد الضباط الهاربين أن يركل إرنستو برجله دون أن يراه. لكن إرنستو أمسك به من كتفه، بعد أن عرف رتبته، وصاح به قائلاً:

ـ أريد الذهاب إلى الجبهة! أريد أن أحمل سلاحاً! أريد أن أقاتل أذناب الـ «يونايتد فروت».

ألقى عليه الضابط نظرة غير متفهمة، ودفعه جانباً، ثم سار متهدلاً نحو الأمام.

ـ إنكم ترتكبون خطأ قاتلاً! صرخ إرنستو بالضابط وهو يلحق به. يجب تسليح الشعب! الشعب!.

* * *

ألقى إرنستو نظرة من النافذة، فوجد إلدا تدخل باحة المنزل. لقد تعجب من عودتها المبكرة، على غير عادتها.

ـ الأمور تسير من سيء إلى أسوأ! فالجيش يرفض القتال ضد المرتزقة، وقادته يطالبون إرينس بالتنازل عن الحكم، ومنع الحزب الشيوعي من النشاط العلني، واستبعاد جميع نشطائه من النقابات.

ـ ليس إرينس غبياً إلى هذا الحد حتى يوافق على هكذا شروط.

ـ لقد وعده الضباط بالقتال في حال موافقته على ذلك، والمحافظة على النهج السياسي الرسمي للحكومة. وهم يعتمدون على الكنيسة.

ضرب إرنستو الطاولة بقبضة يده من شدّة الغضب، وكاد فنجان القهوة أن يسقط على الأرض بعد أن علا في الهواء.

ـ هذه كلها من ألاعيب سفير اليانكي، قال إرنستو غاضباً ـ كل ذلك نظّمه بإبداع، وإرينس لم يستطع تسليح المتطوعين في الوقت المناسب. وهو الآن لعبة في يد الجيش الذي يتعاون مع أرماس، علناً، عبر السفير الأميركي.

لقد تنازل إرينس عن منصبه، وسيطرت طغمة عسكرية على السلطة. وأول ما قامت به هو منع نشاط الحزب الشيوعي، وبدأت حملة اعتقالات وإعدامات واسعة شملت كل البلاد.

جلس إرنستو، كما لم يعهده أحد من قبل، واضعاً رجليه على المنضدة، مكتفاً يديه على صدره، وبدا جموحاً متمرداً. كان نيكو يتمشى في الغرفة بعصبية. أما إلدا فكانت تحاول السيطرة على أصابعها المرتجفة. فجأة، علّق إرنستو ببرودة قائلاً:

ـ نفّذ السفير المهمة بإتقان، وبدت نهاية حلم شعوب أميركا اللاتينية.

ـ لماذا قام إرينس بالتخلي عن منصبه والشعب إلى جانبه لماذا لم يقاوم؟

ـ أنا أعتقد أنه توقّع انتهاء كل شيء، بالفعل، إذا منع الحزب الشيوعي من العلنية.

قالت إلدا مفسِّرة. لكنه لم يفهم الدور السياسي للحملة الواسعة ضد الشيوعية.

ـ كما أنه لم يقيِّم دور الجيش والكنيسة الكاثوليكية...

سُمعت عدة طرقات على باب بنسيون «سرفانتس». تبادلوا نظرات مضطربة، لم يستطيعوا إخفاءها. من تراه يكون؟ هل قدموا في طلب هؤلاء لعلمهم بمشاركتهم في القتال ضد أرماس؟ أم أنه مشكوك بهم كأجانب؟

توجّه إرنستو إلى الباب، فوجد أمامه السفير الأرجنتيني:

ـ أنا أبحث عن السيد إرنستو غيڤارا.

ـ إن من تبحث عنه هو أنا.

دخل السفير إلى الغرفة، وطلب إقفال الباب بالمفتاح. وبدا كهارب يبحث عن النجاة. نظرته غير الواثقة توقفت على إلدا ونيكّو.

ـ إنهم أصدقائي. قال إرنستو موضحاً.

قال السفير بعد تردد:

ـ لديّ حديث هام. أحمل معلومات، على أساسها تكون

حياتكم في خطر يا سيّد غيڤارا. لقد أدرجتك المخابرات المركزية الأميركية في القائمة السوداء كشيوعي. وستكون معرضاً للإعدام رمياً بالرصاص في ظل هذا الوضع.

أربك الخبر إرنستو. لكنه حاول السيطرة على أعصابه.

ـ أشكركم على إشعاري بذلك.

ـ أنصحك بالتسلّل إلى مبنى السفارة في أسرع وقت ممكن. وأنا سأبذل ما في وسعي لتأمين عودتك إلى الأرجنتين.

ـ إنني على استعداد للجوء إلى السفارة في حال وجود ضمانة لحياتي هناك. لكنني لست متأكداً من رغبتي في العودة إلى الأرجنتين بالذات.

عندما وصل إرنستو إلى السفارة، وجدها مزدحمة بالباحثين عن ملجأ هناك: من غواتيماليين وكوبيين وأرجنتينيين. لقد قسِّموا إلى مجموعتين: ديمقراطيين وشيوعيين. ومن دون تفكير عميق توجه إرنستو إلى مجموعة الشيوعيين لوجود نيكّو واقفاً هناك.

ـ إلى أين تنوي السفر الآن يا إرنستو؟ سأله نيكّو.

ـ إلى أقرب دولة يمكنني أن أنجو فيها من أخطبوط المخابرات المركزية الأميركية ـ إلى المكسيك.

❊ ❊ ❊

وجد في عاصمة المكسيك عملاً في مستشفى، لكنه لم يكن يعتزم الاستقرار هناك بشكل نهائي. إلاّ أنه بقي بانتظار إلدا، التي كانت في ذلك الوقت ملقاة في أحد سجون غواتيمالا.

استأجر شقة متواضعة له ولإلدا. كان يقضي معظم وقته في المكتبة، يقرأ بانشداد وتلهّف نيرودا، وخوسيه مارتي، ولينين، وأرنست همنغواي، وكارل ماركس.

كم كانت سعادته كبيرة عندما التقى صدفة في أحد ممرات المستشفى بصديقه ورفيق دربه نيكّو. وبعد أن تعانقا طويلاً،

توجها إلى منزل إرنستو، وبقيا حتى ساعة متأخرة من الليل يتجاذبان الأحاديث والذكريات.

كما كانت سعادة نيكّو عظيمة للقائه في المكسيك رفاقه القدامى في النضال من الكوبيين. واقترح على إرنستو أن يتعرّف إليهم.

ـ بالتأكيد ستتعرف على راؤول كاسترو، إنه شاب عالمي، ولن تستطيع إلاّ أن تحبه. لقد أمضى فترة من حياته في سجون كوبا لمشاركته في الهجوم على ثكنة مونكادا. كما حاولوا توريطه بتهمة تفجير دار للسينما.

* * *

تناول إرنستو فطوره بشكل سريع، وأبعد الطبق جانباً وهو يهمّ بالوقوف. لكن، أمسكت به إلدا قائلة:

ـ أكمل فطورك. لديك الوقت الكافي لذلك.

هزّ إرنستو رأسه معترضاً، وقال:

ـ سأذهب إلى الجدة ماريا. ربما يكون بإمكاني مساعدتها...

ـ لكن، ليست وحدها في المستشفى!

إنها تنتظرني.

أمسكت إلدا بالسكين، وأخذت تحركها فوق طبق الطعام من دون هدف، وهي تنظر بثبات إلى الطاولة. تقدم إرنستو منها عدة خطوات. عانقها، ثم ابتسم قائلاً:

ـ أتشعرين بالغيرة يا إلدا؟

هزّت رأسها، ثم استعادت وضعها السابق قائلة:

ـ دائماً وفي كل مرة على هذه الحال: الجدة ماريا! الجدة ماريا! في الصباح تغادر البيت وتسرع إليها. وبعد عودتك من العمل لا تتحدث إلا عن وضعها الصحي. حتى في منتصف الليل، تنهض من فراشك مسرعاً إليها لتطمئن إلى صحتها من